آثار الشيخ زيد الفياض رحمه الله (٢٣)

القاضي إياس بن معاوية

تأليف فضيلة الشيخ
زيد بن عبد العزيز الفياض
رحمه الله
(١٣٥٠-١٤١٦هـ)



دار الألوكة للنشر


القاضي
إياس بن معاوية

الطبعة الأولى ١٤٣٧هـ



دار الألوكة للنشر
المملكة العربية السعودية - الرياض
هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٥٦٦٦٦٠ تحويلة ٣٣٣
ناسوخ: ٤٥٥٠٦٦٦ - ص . ب ٣٠٥٦٦٠ الرياض ١١٣٦١
dar@alukah.net

القاضي

إياس بن معاوية

تأليف فضيلة الشيخ

زيد بن عبد العزيز الفياض

رحمه الله

(١٣٥٠-١٤١٦هـ)




بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٠

المقدِّمة

الحمد لله، وله الثناء والحمد، وصلَّى الله على سَيِّد البشر وخاتم النبِيِّين، وعلى آله وصحابته أجمعين، ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدِّين، وبعد:

فإنَّ الأمَّة الإسلاميَّة التي تكالَبت عليها الأمم من كلِّ جانب، وتداعَت عليهم كما تَداعى الأَكَلَةُ على قصعتها، وسيطرَ المستعمرون الصَّليبيُّون والشُّيوعيُّون على بلادهم، ثم وُجِّه إليهم غزوٌ فكريٌّ قاتل لم يستطيعوا الفَكاك منه أو يستريحوا من بلائه، حتى بعد رحيل الاستعمار عمَّا رحلَ عنه من أقطار.

ولقد كان من الخُطط الشرِّيرة لأعداء الإسلام أن بذلوا قُصارى جهودهم لصرفهم عن الدِّين وما يمتُّ له بصِلَة؛ من تفسير للقرآن، واستنباط أحكامه، إلى حرب على اللُّغة العربية تَمثَّل في دعاة هَجرِ الفُصحى، والاستعاضة عنها في التخاطُب والكتابة بالعامِّية، إلى صدٍّ واضح عن التاريخ الإسلامي، وتجهيل لمعرفة رجاله وعظمائه وقادته ورواته وحُذَّاقه.

كلٌّ أولئك وغيرها لهدفٍ ماكرٍ وغاية دنيئة، ألا وهي إبعادُ المسلمين عن الإسلام، وقطع صِلَتهم به، ولقد لاقى نجاحًا إن لم يكن كاملًا، فهو ذو أثرٍ بعيد في حياة الأمَّة الإسلاميَّة ومستقبلها.

وما زال الغيورون من علماء المسلمين يُنافحون ويُقاومون، ويجنِّدون أنفسهم وأقلامهم لدحضِ الشُّبهات، وردِّ مُفتَريات المبشِّرين النصارى، والملاحدة الشُّيوعيِّين، واليهود الهدَّامين.

ولكنَّ الأعداء بأساليبهم المتنوِّعة وأسلحتهم المختلفة كانوا يسلِّطون أتباعهم والمخدوعين بهم على أولئك العلماء المصلحين، وينفِّرون الناس عنهم، ويشوِّهون مقاصدهم الكريمة، بدَعاوى باطلة، وأكاذيبَ مختلفة.

وما بَرِحَ الصِّراع قائمًا، والمعركة حاميةَ الوَطِيس. . .

ولم يَهُن علماء المسلمين الناصحين، وشمَّروا عن سواعدهم؛ يُكافحون الباطل، ويردُّون الشُّبهات، ويكشفون الزَّيف.

وإنَّ ما نراه من تطلُّعات إسلاميَّة، ومن نشاط يلمَع نُوره، ويشتدُّ ساعده في بُلدان إسلاميَّة كثيرة، وما نشهده

من عزم أكيد على المضيِّ في سبيل الحقِّ والعدل؛ انتصارًا لدين الله - هو أملٌ عظيم بأنَّ أمَّة الإسلام سائرةٌ نحو المجد، ماضيةٌ إلى بلوغ أهدافها الخَيِّرة، مقتبسةٌ من سيرة سلفها الصالح ما يُرشدها إلى المَسلَك الأقوَم والنَّهج الأمثَل.

وما نُقدِّمه في هذه الدِّراسة الجديدة عن عَلَم من أعلام المسلمين، ومفخرةٍ من مفاخرهم، ونابغةٍ فذٍّ، لولا أنَّ ما رُوي عنه كان ثابتًا سندًا ولفظًا، وحقائقَ واقعة، لا دخلَ للزيادة والإضافات فيها - لقِيل: إنَّها ضربٌ من الخيال، ولونٌ من ألوان الحكايات المبتدعة التي يُراد بها التَّسلية واللَّهو.

ذلكم هو الدَّاهية العظيم، وأشهر أصحاب الفِراسة النابغين، هو: إياس بن معاوية؛ القاضي الراوية الأديب، الذي تقرأ سيرته فتتمنَّى أن تطولَ الصفحات، وأن يمتدَّ الحديث، حتى تردِّد مع الشاعر قوله:

وحَدَّثتَني يا سَعدُ عنهُم فهِجتَ لي
شُجوني فزِدْني من حَديثِكَ يا سَعدُ

أجل؛ فهي أحاديثُ شائقةٌ لطيفة، فيها الجِدُّ والهزل،

والصَّرامة والمَرَح، والتَّقوى مع الانبساط.

إنَّ إياس بن معاوية قد وهبَه الله من دقَّة الملاحظة، والذكاء النادر، والفِطنة العجيبة، ما جعلَه مَضرِب المثل على مرِّ العصور.

ومن المحزن أنَّ سيرة هذا الرجل الباهر لم تُفرد لها المؤلَّفات، ولم يُكثِر عنه المؤلِّفون من الحديث، إلَّا ما يجري عنه من أمثال تدلُّ على فِطنَته وكفى، أو تراجمَ له مُبعثرة في ثنايا الكتب التاريخيَّة والأدبيَّة، ولا أعلم أنَّ هناك مُؤَلَّفًا مستقلًّا عنه إلَّا ما ذُكر أنَّ المَدائِنيَّ ألَّفَ كتابًا في أخباره(١).

---

(١) قال الزِّركلي في "الأعلام": «عليُّ بن محمَّد بن عبد الله أبو الحسن المَدائِني، راويةٌ مؤرِّخ كثيرُ التَّصانيف، من أهل البصرة، وسكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد، فلم يَزل بها إلى أن تُوفي، أوردَ ابن النَّديم أسماء نيِّف ومئتي كتاب من مصنَّفاته في المغازي، والسِّيرة النبويَّة، وأخبار النِّساء، وتاريخ الخلفاء، وتاريخ الوقائع والفتوح، والجاهليِّين، والشُّعراء، والبُلدان، قال ابن تَغْرِي بَرْدِي: وتاريخه أحسن التواريخ، وعنه أخذ الناسُ تواريخهم».
وكانت ولادته سنة **١٣٥هـ**، ووفاته سنة **٢٢٥هـ**.
وقد سرد ابنُ النَّديم في "الفِهْرست" أسماء مؤلَّفاته وترجمته من (ص**١٥٣**) حتى صفحة (**١٥٨**)، وأوردَ في تَعداد مؤلَّفاته: "أخبار إياس بن معاوية".

وهذا تقصيرٌ واضحٌ في حقِّ ذلك العالم الذكي، وإهمالٌ تاريخيٌّ.

فمن هذا المنطلق وشبهه يجب أن تسيرَ مواكب الأمَّة الإسلاميَّة مُحَطِّمَة حواجز الأعداء التي بُثَّت في الطريق نحو العزَّة الإسلاميَّة.

ومن ينابيع الدِّين الإسلاميِّ وتاريخه تكون المسيرة المظفَّرة؛ حتى لا تتخبَّطَ في مَسيرتها، ولا تجهلَ دورها، وحقيقة سلفها الصالح، ولا تحتقرَ نفسها ورجالها الأماجد، وتروح تُشيد ببطولة الصَّليبيِّين والشيوعيِّين واليهود، مُعرِضةً عن عظماء المسلمين وأبطالهم.

وإنَّ مسؤوليَّةً خطيرةً يتحمَّلها رجال العلم والفكر في البلاد الإسلاميَّة إزاء هذا الأمر الجسيم.

إنَّ من المؤسف أن تسمعَ من يُشيد ببطولة ماو تسي تونغ، ونابُليون، وجِيفارا، ولومومبا، وبرتراند رسل، وأضرابهم، ويجهل ما قدَّمه خالد بن الوليد، وقُتيبة بن مسلم، وصلاح الدِّين الأيُّوبي، وإياس بن معاوية، والعزُّ ابن عبد السلام، وابن تيميَّة، وأمثالهم.

إنَّ تاريخَ المسلمين حافل بالعظمة والنبوغ والمكارم، ويبقى دور المتأخِّرين ليطَّلعوا ويستفيدوا ويقتَدوا.

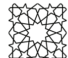
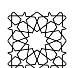
إنَّني أرجو أن أكون قد وفِّقت في هذا الكتاب الذي أقدِّمه اليوم عن إياس بن معاوية القاضي اللَّوذَعي.

وبالله التوفيق، وهو حسبُنا ونعم الوكيل.



نتقدم بالشكر للشيخ إبراهيم بن فريهد العنزي لتفضله بمراجعة هذا الكتاب.



 القاضي إِياس بن معاوية 

نسبُه وبلدُه:

القاضي إياس من قبيلة مُزَيْنَة، ومن دَوحةِ مُضَر بن نِزار؛ فهو عربيٌّ عريق.

وهو إياس بن معاويةَ بن قُرَّةَ بن إياسِ بن هلال بن رَباب بن عُبيد بن دُريد بن أُويس بن سُواءة بن عَمرو بن سارية بن ثَعلَبَةَ بن ذُبيان بن سُليم بن أَوس بن عمرو بن أُدِّ ابن طابخة بن إلياس بن مُضَر بن نِزار بن مَعَدِّ بن عدنان، أبو واثِلة[(١)]، ومُزَينة بنت كلب بن وَبْرة بن عثمان، وأوس، ابني عَمرو[(٢)].

روى الأصمعيُّ، قال: أتى إياسًا رجلٌ؛ فقال: يا يَماميُّ؛ قال: لستُ بيماميٍّ؛ قال: يا أُضاخيُّ؛ قال:

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٧٤)، وكنيته: أبو واثِلَة بالثاء، هكذا ذُكر في أكثر الكتب، وفي "وفَيات الأعيان" كُتبت بالهمزة.

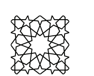
(٢) ولدُ عمرو بن أُدٍّ: عثمان، وأوس. وأُمُّهما مُزَينةُ بنت كلب بن وَبرة؛ فنُسب ولدها إليها. "جمهرة أنساب العرب" لابن حزم (ص٢٠١). (الألوكة).

لست بأُضاخيٍّ؛ فقال: يا ضَرَويُّ؛ فجاءَ فسأله عن نفسه؛ فقال: ولدتُّ باليمامة، ونشأت بأُضاخَة، ثم تحوَّلت إلى ضَرِيَّة[1].



(١) من كتاب "أخبار القضاة" (١/ ٣٧٤).

تولِّيه القضاءَ على كُرهٍ منه



تولَّى إياس القضاء على غير تشوُّفٍ أو إرادةٍ منه، بل كان كارهًا لولايته؛ ولذا حاولَ أن تكون من نصيب عالم غيره، ولكنَّ علمه وفطنته؛ وهما دِعامة القضاء، إلى جانب المؤهِّلات والصِّفات المتوفِّرة فيه - جعل الخليفة والأمير يختاران إياسًا، ويُلزمانه بمنصب القضاء.

وغيرُ خافٍ ما للقضاءِ من أهميَّة في إنصاف المظلومين، وردع المعتدي، وحفظ الحقوق، ورعاية القاصرين، وكان القاضي حينذاك يقوم بوظيفة أخرى، هي الفتوى، فكان قاضيًا ومفتيًا في آنٍ واحد، وهو يقوم على بيان الحكم الشرعي، ويُراقب التنفيذ، ويُباشر أحيانًا بنفسه التأديبَ إذا ما أساء أحدُ المتخاصمين أو غيرهم أمامَه. فهي مهمَّة شاقَّة وصعبة، وتحتاج إلى كفاءة ممتازة، وقوَّة على إنفاذ الحكم،

والحيلولة دونَ تعطيله، ومقاومة الضغط والإغراء والمحاولات الكثيرة، والقاضي يشعر أنَّ من يقضي بما لا يُناسب أهواءهم سيغضبون منه إلَّا القليل، وقد قال شُرَيح

عندما سُئل: كيف أصبحت؟ قال: كيف أصبح مَن نصفُ الناس عليه غضبان؟!

إنَّ إياسًا لم يكن متهافتًا على منصب القضاء؛ ومن ثَمَّ فإنَّه سعى إلى الخَلاص منه، فلم ينجح، وكُلِّف به وهو له أهل.

فقد رُويَ أنَّ عمر بن عبد العزيز وجَّهَ رجلًا إلى البصرة، فأمرَه بالمسألة عن إياس بن معاوية، والقاسم بن رَبِيعَةَ الجَوْشَني، ويفتِّشهما عن أنفسهما؛ ليولِّيَ أَولاهما بذلك؛ فجمعَ بينهما، فقال إياس للرجل: سَل عنِّي وعنه فقيهَي المِصر: الحسن، وابن سِيرين، فمَن أشارا عليك بتوليته ولَّيتَه.

وكان القاسمُ يُجالسهما، وكان إياس لا يفعل؛ فعَلِمَ القاسمُ أنَّه إن سألَهما أشارا به، فقال للرجل: أيُّها الرجل، ليس بك حاجةٌ إلى أن تسألَ عنِّي وعنه، اسمع ما أقول لك، وأحلف عليه: واللهِ الذي لا إله إلَّا هو، ما أنا بصاحب ما تُريدني عليه، ولَإياسٌ أعلم به، وأقوى عليه، فإن كنتُ عندك صادقًا فما ينبغي أن تتركَه وتولِّيني، وإن كنتُ عندك كاذبًا فما ينبغي أن تولِّيَ كَذَّابًا!

فوقفَ الرجل ودخلَه شكٌّ، وهَمَّ بتولية إياس، فقال: إنَّك وَقَفتَه بين الجنَّة والنَّار، فخافَ على نفسه، ففداها بيمينٍ حانِثَة، يتوب منها ويستغفر ربَّه، وينجو بها من هَول ما أردتَّهُ عليه.

فقال الرجل: أما إذ فَطِنتَ لهذا؛ فأنتَ أفهم منه، وعزمَ على توليته[1].

ولم تُجدِ إياسًا حيلتُه في الفَكاك من شبكة القضاء؛ فقد سدَّ القاسم بن ربيعةَ الباب أمامَه، والوالي هو الآخر قد رمى بثقله مؤيِّدًا قيام إياس بالقضاء؛ لأنَّه الأجدر، والأكثر كفاءة؛ إذًا فلا بدَّ من الرضوخ...

على أنه يحاول مرَّة أخرى أن يقومَ بأعباء المنصب الخطير عالمٌ فاضلٌ له مكانته العلميَّة وفضله وأدبه، فهو يقول: إنَّ بكرًا المُزَنيَّ خيرٌ منه، وهو يأمُل أن يتولَّى القضاء، ويُعفى منه إياس، ولكنَّ بكرًا ليس بأقلَّ زهدًا في القضاء، وارتياعًا من الاضطلاع بمسؤوليَّاته الهائلة من إياس؛ فهو يتنصَّل ويرفض قطعًا، ويدلي بالحُجج مبيِّنًا

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣١٢-٣١٣)، و"البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٦-٣٣٧)، و"وفيات الأعيان" (١/ ٢٢٥)، و"البيان والتبيين" (١/ ١٢٤).

فضل إياس وأحقيَّته في تولِّي القضاء.

وفي "تاريخ خليفة بن خَيَّاط" (١/ ٣٣٠-٣٣١):

حدَّثنا عامر بن حفص: أنَّ عمر بن عبد العزيز كتبَ إلى عَدِيِّ بن أَرْطَاة، أن اجمع ناسًا ممَّن قِبَلكَ فشاورهم في إياس بن معاوية، والقاسم بن ربيعة الجَوْشَني، فاستقضِ أحدهما، فجمعَ عَدِيٌّ ناسًا، فحلفَ القاسم أنَّ إياسًا أعلم بالقضاء، وأصلحُ له منِّي، فولَّاه عديٌّ.

فحدَّثني سهل بن يوسف، قال: نا خالدٌ الحَذَّاء، قال: قال لي إياس بن معاوية: إنَّ هذا الرجل قد بعثَ إليَّ فانطلقتُ معه، فدخلَ على عَدِيٍّ، ثم خرجَ ومعه حَرَسيٌّ، فقال: أبى أن يُعفيَني، فأتى المسجد، فصلَّى ركعتين، ثم قال للحرس: قدِّم.

فما قامَ حتى قضى سبعين قضيَّة، ثم خرجَ إياس من البصرة في قِصَّةٍ كانت، فولَّى عَدِيٌّ الحسنَ بن أبي الحسن[1].

وعن مُغيرةَ قال: ولَّى عَدِيٌّ إياسًا قضاء البصرة،

---

(١) (١/ ٢٢٤).

فأبى، وقال: بكر المُزَنيُّ خيرٌ منِّي، فأمرَ بكرًا بذلك، فقال: إياس خيرٌ منِّي، قالوا: إنَّه قد قال: إنَّك خيرٌ منه، فقال: لو لم تعلموا من فضله إلَّا تفضيلَه إيَّاي عليه كان ينبغي لكم أن تعلموا أنَّه أفضل منِّي[١].

وحدَّث عمر بن علي بن عطاء بن مُقَدَّم، قال: لما استُقضِيَ إِيَاس بن معاوية أرسل إلى خالد الحَذَّاء، فتلكَّأ عليه؛ فقال: واللهِ، إنَّ ممَّا شجعني على قَبول القضاء مكانَك، فلم يزل به حتى صار وزيرًا ومشيرًا[٢].

قال معاوية بن قُرَّة لابنه إياس: إنَّ الناسَ يلدون أبناءً، وولَدتُّ أبًا[٣].

ولمَّا تولَّى إياس القضاءَ بالبصرة فَرِحَ به العلماء، حتى قال أيُّوب: لقد رَمَوهَا بِحَجَرِها، وجاءَ الحسن وابن سِيرين فسلَّما عليه، فبكى إياس، وذكرَ الحديث: «القضاةُ ثلاثة؛ قاضيان في النار، وواحد في الجنَّة»، فقال الحسن: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ [الأنبياء:

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣١٨).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣١٧).
(٣) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٧٠).

٧٨] إلى قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، قالوا: ثم جلس للناس في المسجد، واجتمعَ عليه الناس للخصومات، فما قامَ حتى فصلَ سبعين قضيَّة، حتى كان يُشَبَّه بِشُرَيح القاضي.

ورُويَ أنَّه كان إذا أشكلَ عليه شيء بعثَ إلى محمَّد ابن سِيرينَ فسأله عنه.

وقال إياس: إنِّي لأكلِّم الناس بنصف عقلي، فإذا اختصمَ إليَّ اثنان جمعتُ لهما عقلي كلَّه(١).

وقال: النُّمَيريُّ عن ابن عاصم: كان رزقُ إياس بن معاويةَ مئةَ درهم(٢).

❀ ❀ ❀

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في كتابه "السِّياسة الشرعيَّه، في إصلاح الراعي والرعيَّه"(٣):

وينبغي أن يعرفَ الأصلح في كلِّ منصب؛ فإنَّ الولاية لها ركنان: القوَّة والأمانة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ

(١) المرجع السابق (٩/ ٣٣٧).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٢).
(٣) (ص٦-٧)، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٢.

ٱسۡتَـْٔجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القَصَص: ٢٦]، وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يُوسُف: ٥٤]، وقال تعالى في صفة جبريل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [التّكوير: ١٩-٢١].

والقوَّة في كلِّ ولاية بحسَبها؛ فالقوَّة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها؛ فإنَّ الحربَ خَدعَة، وإلى القدرة على أنواع القتال؛ من رميٍ وطعنٍ، وضربٍ وركوبٍ، وكرٍّ وفرٍّ ونحو ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال النبيُّ ﷺ: «ارمُوا واركَبوا، وأن ترموا أحبُّ إليَّ من أن تَركَبوا، ومن تعلَّمَ الرَّميَ ثم نسِيَه فليس منَّا»، وفي رواية: «فهي نِعمَةٌ جَحَدَها»؛ رواه مسلم.

والقوَّة في الحكم بين الناس ترجع إلى: العلم بالعدل الذي دلَّ عليه الكتاب والسُّنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.

والأمانة ترجع إلى: خَشية الله، وألَّا يشتري بآياته ثمنًا

قليلًا، وترك خَشية الناس، وهذه الخصالُ الثلاث التي اتَّخذها الله على كلِّ حكم على الناس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المَائدة: ٤٤]؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «القضاةُ ثلاثة؛ قاضيان في النار، وقاضٍ في الجنَّة؛ فرجلٌ عَلِمَ الحقَّ وقضى بخلافه فهو في النار، ورجلٌ قضى بين الناس على جهلٍ فهو في النار، ورجلٌ عَلِمَ الحقَّ وقضى به فهو في الجنَّة»؛ رواه أهل السُّنن.

والقاضي اسمٌ لكلِّ من قضى بين اثنين وحكمَ بينهما، سواءٌ كان خليفةً أو سلطانًا أو نائبًا أو واليًا، أو كان منصوبًا ليقضيَ بالشَّرع أو نائبًا له، حتى من يحكم بين الصِّبيان في الخُطوط إذا تخايَروا؛ هكذا ذكرَ أصحاب رسول الله ﷺ، وهو ظاهر.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميَّة في كتابه "السِّياسة الشَّرعيَّة": ويُقدَّم في ولاية القضاء الأعلمُ الأورَع الأكفأ، فإن كان أحدهما أعلمَ والآخرُ أورعَ، قُدِّم فيما قد يظهر حكمُه ويُخاف فيه الهوى الأورع، وفيما يدِقُّ حكمه

ويُخاف فيه الاشتباه الأعلم؛ ففي الحديث عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ الله يحبُّ البصرَ النَّافذ عند ورود الشُّبهات، ويحبُّ العقلَ الكاملَ عند حُلول الشَّهَوات».

ويُقدَّمان على الأكفأ إن كان القاضي مؤيَّدًا تأييدًا تامًّا من جهة والي الحرب أو العامَّة، ويُقَدَّم الأكفأ إن كان القضاء يحتاج إلى قوَّةٍ وإعانةٍ للقاضي أكثرَ من حاجته إلى مزيد العلم والورع؛ فإنَّ القاضيَ المطلَق يحتاجُ أن يكون عالمًا عادلًا قادرًا، بل وكذلك كلُّ والٍ للمسلمين، فأيُّ صفةٍ من هذه الصِّفات نقصت ظهرَ الخلل بسببه.

والكفاءة إمَّا بقهرٍ ورهبَة، وإمَّا بإحسان ورغبَة، وفي الحقيقة فلا بدَّ منهما.

وسُئل بعض العلماء: إذا لم يوجد من يُولَّى القضاء إلَّا عالم فاسق أو جاهل ديِّن، فأيُّهما يُقدَّم؟

فقال: إن كانت الحاجة إلى الدِّين أكثر لغَلَبَةِ الفساد قُدِّمَ الديِّن، وإن كانت الحاجة إلى العلم أكثر لخفاء الحكومات قُدِّمَ العالم.

وأكثر العلماء يُقَدِّمون ذا الدِّين؛ فإنَّ الأئمَّة متَّفقون

على أنَّه لا بدَّ في المتولِّي من أن يكونَ عدلًا أهلًا للشَّهادة.

واختلفوا في اشتراط العلم؛ هل يجب أن يكونَ مجتهدًا، أو يجوز أن يكون مُقَلِّدًا، أو الواجب توليةُ الأمثل فالأمثل كيفما تيسَّر؟ على ثلاثة أقوال.

ومع أنَّه يجوز تولية غير الأهل للضرورة إذا كان أصلحَ الموجود، فيجب مع ذلك السَّعيُ في إصلاح الأحوال حتى يكمُلَ في الناس ما لا بدَّ منه من أمور الولايات والإمارات ونحوها، كما يجب على المعسِر السَّعيُ في وفاء دينه، وإن كان في الحال لا يُطلب منه إلَّا ما يقدر عليه، وكما يجب الاستعداد للجهاد بإعداد القوَّة ورباط الخيل في وقت سقوطه للعجز؛ فإنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب[١].



---

(١) (ص ٩-١٠).

ضَربُه لأنَّه لم يتولَّ الحِسبَة

اشتهرَ إياس بالفِطنَة والذَّكاء والعلم والصلاح؛ فكانت مؤهِّلاته داعيةً إلى لفت الأنظار إليه، والاستفادة من مواهبه وثقافته، ولكنَّ هذه المواهب على ما أطارت له من صِيت، وبنَت له من مجد، فقد كانت تسبِّبُ له المتاعب، فها هو يقع في قبضة والٍ ظالم، هو يوسف بن عمر، قريب الحجَّاج بن يوسف الثَّقفيِّ وابن عمِّه، وفيه من طباعه وجبروته حظٌّ، فيختار إياسًا لوظيفة الحِسبَة.

وهي وظيفةٌ تتطلَّبُ مراقبة الأسواق عن الغشِّ والتَّطفيف في المكاييل والموازين، وإزالة المنكرات التي تحدث في الأسواق، والأمر بالمعروف، ولم يرتَح إياس لهذا الاختيار وأبى من قَبوله، فأوغرَ ذلك صدرَ يوسف بن عمر عليه، فضربَه ستَّةً وخمسين سَوطًا؛ عقوبةً على امتناعه عن قَبول الوظيفة.

روى حفص بن عمر بن حفص بن عبد الله بن الحارث بن هشام، قال: كنت غائبًا عن واسِط أيَّام يوسف

ابن عمر؛ فقَدِمتُ، فقال لي: إنِّي أتيتُ إياس بن معاوية، قلت: وما له؟ قال: ضربَه الأمير يوسف؛ أرادَه على أن يتولَّى له السُّوق، فأبى؛ فضربَه، فأتيتُه، فوجدتُّ عندَه جماعة، فقال: إليَّ إليَّ يا أبا عمر، ههنا! فأجلسني إلى جنبه، ثم قال: لقد ضربني الأميرُ ستَّة وخمسين سَوطًا، فنظرت في ضربي مملوكيَّ، فإذا هو ينقُص على ضرب يوسفَ إيَّاي سوطين؛ فقلت: أرجو أن يكون قِصاصًا، وأن يكون لي فواتُ السَّوطين.

ثم اقتصَّ ضربَه مملوكِيهِ لما ضربَهم عليه، فحفِظتُ قِصَّةَ غلام منهم؛ قال: جئت في يوم بارد، فوضعتُ قَلَنسُوَتي، وعِمامتي عن رأسي، ودعوتُ بالوَضوء، فجاء بماءٍ بارد، فقال بالفارسيَّة: أصبُّ على رأسك؟! فقلت متعجبًا منه: نعم! فصبَّ على رأسي ماءً باردًا في يومٍ بارد! فضربته سوطَين[١].

قال ابن خَلِّكان في "وفَيات الأعيان": أبو يعقوب[٢] يوسف بن عمر بن محمَّد بن الحَكَم بن أبي عقيل بن

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٢-٣٥٣).
(٢) في "وفَيات الأعيان": «أبو عبد الله».

مسعود الثَّقفي، ابن عمِّ الحجَّاج بن يوسف.

قال خَليفةُ بن خَيَّاط: ولَّى هشامُ بن عبد الملك يوسفَ بن عمر اليمن، فقدِمها لثلاثٍ بقينَ من شهر رمضان، سنة ستٍّ ومئة، فلم يزل واليًا بها حتى كتبَ إليه هشام في سنة عشرين ومئة بولايته على العراق، فاستخلفَ على اليمن ابنَه الصَّلْتَ بن يوسف.

وقال البخاري: كانت ولاية يوسفَ بن عمر العراقَ سنة إحدى وعشرين ومئة، إلى آخر سنة أربع وعشرين.

وكان يوسف يسلك طرائقَ ابن عمِّه الحجَّاج بن يوسف في الصَّرامة، والشدَّةِ في الأمور، وأخذِ الناس بالمشاقِّ، ولم يزل على ذلك إلى حينِ عزله، وكان يوسف مذمومًا في عمله، أخرق، سيِّئ السِّيرة، وكان جَوادًا، وكان يُضرب به المثل في التِّيهِ والحُمق؛ ذكرَ ذلك حمزةُ الأَصْبَهاني في كتاب "الأمثال"، فقال: قولهم: (أَتْيَهُ من أحمقِ ثَقيفٍ)؛ هو يوسف بن عمر، كان أَتْيَهَ وأحمقَ عربيٍّ أمرَ ونهى في دولة الإسلام.

وقد سُجنَ يوسف بن عمر بعد ذلك وعُذِّب، ثم ضُربَت عنقُه، قتلَه يزيد بن خالد القَسْرِي؛ لكونه قتلَ أباه.

وكان قتلُ يوسف المذكور سنة سبع وعشرين ومئة، وعمره اثنتان وستُّون سنة، ولمَّا قُتلَ أخذوا رأسَه عن جسده، وشدُّوا في رجلَيه حبلًا، فجعلَ الصِّبيان يجرُّونه في شوارع دمشق، فتمُرُّ المرأة به فترى جسدًا صغيرًا، فتقول: في أيِّ شيءٍ قُتل هذا الصبيُّ المسكين؟! لما ترى من صِغَر جثَّته.

قال بعضهم: رأيتُ يوسف بن عمر وفي مَذاكِيره حَبْل، وهو يُجَرُّ بدمشق، ثم رأيتُ بعد ذلك يزيدَ بن خالد القَسْرِيَّ - قاتلَه - وفي مَذاكِيره حَبل، وهو يُجَرُّ في ذلك الموضع[١]!

وقال الذهبيُّ في "تاريخ الإسلام" عن يوسف بن عمر: كان مَهِيبًا جبَّارًا ظلومًا[٢].

وفي كتاب "الحِسبَة في الإسلام" تأليف الأستاذ إبراهيم دسوقي:

«نشأت الحِسبَةُ في عهد رسول الله ﷺ؛ استجابةً لحُكم الآية الكريمة: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ

(١) (٧/ ١٠١-١١٢) بتصرُّف.
(٢) (٨/ ٣١٥).

﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾

[آل عِمرَان: ١٠٤].

وقد تولَّى رسول الله ﷺ الحِسبَة بنفسه، وقلَّدَها غيرَه، واتَّبعَها من بعده الخلفاء، ثم صارت وِلايةً من وِلايات الإسلام، ونظامًا من أنظمة الحُكم التي جرى عليها الولاة والحكَّام، فكانت موجودةً بجوار وِلاية القضاء ووِلاية المظالم وغيرها من الوِلايات.

فقد روى الترمذيُّ عن أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرَةٍ من طعام، فأدخلَ يده فيها، فنالَت أصابعُه بللًا، فقال: «يا صاحبَ الطَّعام، ما هذا؟!»، قال: أصابته السماء يا رسولَ الله، قال: «أفَلا جعلتَه فوقَ الطَّعام؛ حتى يراه الناس!»، ثم قال: «مَن غَشَّ فليس منَّا».

فهذا - ولا شكَّ - نهيٌ منه ﷺ عن منكر؛ هو غشُّ الناس في طعامهم، وهو احتسابٌ ظاهر، ومراقبةٌ منه ﷺ لما يقعُ في الأسواق من غشٍّ وتغرير.

وروى البخاريُّ عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّهم كانوا يشترون الطَّعام من الرُّكْبان على عهد النبيِّ ﷺ،

فيبعثُ عليهم من يمنعهم أن يبيعوه حيثُ اشترَوه، حتى يؤدُّوه إلى رِحالهم.

وقال أبو عمرَ بن عبد البرِّ: استعمل رسول الله ﷺ سعيد بن العاص بن أُميَّة على سوق مَكَّة.

فهذا كلُّه يُفيد أنَّ رسول الله ﷺ كان يدفع الحِسبَة إلى والٍ يأمر الناس في الأسواق بالمعروف وينهاهم عن المنكر، كما يُفيد أوَّلًا نشأتها في عهده ﷺ، وإن كان شأنُ هذه الوِلاية في عهده ﷺ ضيِّقًا محدودًا، كما هو شأنُ كلِّ وِلاية في بداية نشأتها وتكوينها.

وكان عمر بن الخطَّاب يقوم بوظيفة الحِسبَة بنفسه، فكان يمشي في السُّوق، ويُراقب الموازين والمكاييل؛ كما كان يستعمل الولاة، ويدفعهم إلى القيام بها؛ فقد أخرجَ ابن الجوزيِّ عن المسيَّب بن دارم، قال: رأيتُ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يضرب جَمَّالًا، ويقول: قد حمَّلتَ جَملكَ ما لا يُطيق، وفي "كنز العُمَّال" عن عبد الله بن ساعِدَة الهُذَليِّ؛ قال: رأيت عمر بن الخطَّاب يضرب التجَّار بدِرَّتِهِ إذا اجتمعوا على الطَّعام بالسُّوق، حتى يدخلوا سِكَكَ أَسْلَمَ، ويقول: لا تقطعوا علينا سابِلَتَنا.

عن الزُّهْرِيِّ أنَّ عمر بن الخطَّاب استعمل عبد الله بن عُتْبَةَ على السُّوق.

ورُويَ عن عليٍّ - كرَّم الله وجهه - أنَّه كان يأمر بالمَثاعِب (مَسايل الماء) والكُنُف تُقطع عن طريق المسلمين.

ومن ذلك يتبيَّن أنَّ الخلفاءَ الراشدين كانوا معنيِّين بأمر الحِسبَة، ومهتمِّين بشأنها؛ إذ كان الخليفةُ يتولَّاها بنفسه، أو يعيِّن لها من يراه أهلًا للقيام بها، ولمَّا كَثُرت الفتوحات الإسلاميَّة، وعمَّت الهجرة إلى البلاد المفتوحة، واتَّسعت الحضارة، ووُجِدَت المدنيَّات التي لم يكن للعالم عَهدٌ بها - ترقَّت الحِسبَة في الإسلام ترقِّيًا عجيبًا، حتى كانت من أهمِّ الشؤون التي عُنيَ بها الولاة والحكَّام؛ فقاموا بتنظيمها، ووضع قواعدها، وتحديد اختصاصاتها، وبيان سلطة متولِّيها.

وقال ابنُ خَلْدون في "المقدِّمة": أمَّا الحِسبَةُ فهي وظيفةٌ دينيَّةٌ من باب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، الذي هو فرضٌ على القائم بأمور المسلمين، يعيِّن لذلك من يراه أهلًا له، فيتعيَّن فرضه عليه، ويتَّخذ الأعوان على

ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزِّرُ ويؤدِّبُ على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامَّة في المدينة؛ مثل: المنع من المضايقة في الطُّرُقات، ومنع الحمَّالين وأهل السُّفن من الإكثار في الحمل، والحُكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يُتوقَّع من ضررها على السَّابِلَة، والضرب على أيدي المعلِّمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصِّبيان المتعلِّمين.

ولا يتوقَّف حُكمه على تنازع أو استعداء، بل له النظرُ والحُكمُ فيما يصل إلى علمه من ذلك ويُرفع إليه، وليس له إمضاء الحكم في الدَّعاوى مُطلقًا، بل فيما يتعلَّق بالغشِّ والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين، وله أيضًا حملُ المماطلين على الإنصاف، وأمثال ذلك؛ ممَّا ليس فيه سماعُ بَيِّنة، ولا إنفاذُ حُكم، وكأنَّها أحكامٌ يُنزَّه القاضي عنها؛ لعمومها وسهولة أغراضها، فتُدفع إلى صاحب هذه الوظيفة؛ ليقوم بها.

فوضعُها على ذلك أن تكونَ خادمةً لمنصب القضاء، وقد كانت في كثير من الدُّول الإسلاميَّة - مثل العُبَيدِيِّين بمصرَ والمغرب، والأُمويِّين بالأندلس - داخلةً في عموم

ولاية القاضي، يولِّي فيها باختياره، ثم لمَّا انفردت وظيفة السُّلطان عن الخلافة، وصارَ نظره عامًّا في أمور السِّياسة اندرجَت في وظائف الملك وأُفردت بالوِلاية[١].

قال ابن القيِّم في "الطُّرق الحُكمِيَّة": وأمَّا الحُكمُ بينهم فيما لا يتوقَّف على الدَّعوى؛ فهو المُسَمَّى بالحِسبَة، والمتولِّي له: والي الحِسبَة، وقد جرت العادةُ بإفراد هذا النَّوع بوِلايةٍ خاصَّة، كما أُفردت وِلايةُ المظالم بوِلايةٍ خاصَّة، والمتولِّي لها يُسمَّى: واليَ المظالم، ووِلايةُ المال قَبضًا وصَرفًا بوِلايةٍ خاصَّة، والمتولي لذلك يُسمَّى: وزير، وناظر البلد والمتولِّي لإحصاء المال ووجوهه وضبطه تُسمَّى وِلايته: ولاية استيفاء، والمتولِّي لاستخراجه وتحصيله ممَّن هو عليه تُسَمَّى وِلايته: ولاية السِّرِّ.

والمتولِّي لفصل الخصومات وإثبات الحقوق والحكم في الفُروج والأنكحة والطلاق والنفقات، وصحَّة العقود وبُطلانها هو المخصوص باسم الحاكم والقاضي، وإن كان هذا الاسم يتناول كلَّ حاكم بين اثنين وقاضٍ بينهما.

فيدخل أصحابُ هذه الوِلايات جميعهم تحتَ قوله

(١) "مقدمة ابن خلدون" (ص٢٢٥-٢٢٦).

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النِّسَاء: ٥٨]، وتحتَ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المَائدة: ٤٤] وقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المَائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المَائدة: ٤٧]، وتحتَ قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المَائدة: ٤٩]، وقوله ﷺ: «القُضاةُ ثلاثة»، وقوله: «من وَلِيَ القضاءَ فقد ذُبحَ بغير سِكِّين»، وقوله ﷺ: «المُقسِطون عند الله على مَنابرَ من نُور عن يَمين الرحمن، وكِلتا يديهِ يَمين؛ الذين يَعدِلون في حُكمهم وأهلِيهم وما وَلُوا».

والمقصود أنَّ الحكمَ بين الناس في هذا النَّوع الذي لا يتوقَّف على الدَّعوى هو المعروف بوِلاية الحِسبَة.

وقاعدتُه وأصلُه: هو الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر؛ الذي بعثَ الله به رسلَه، وأنزلَ به كتبه، ووصفَ به هذه الأمَّة، وفضَّلها لأجله على سائر الأُمم التي أُخرجَت للناس.

وهذا واجبٌ على كلِّ مسلم قادر، وهو فرضُ كفاية، ويصير فرضَ عَينٍ على القادر الذي لم يقُم به غيرُه من ذوي الوِلاية والسُّلطان، فعليهم من الواجب ما ليس على غيرهم؛ فإنَّ مَناط الوجوب هو القُدرة، فيجب على القادر ما لا يجب على العاجز؛ قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التّغَابُن: ١٦] وقال النبيُّ ﷺ: «إذا أمرتُكم بأمرٍ، فأتُوا منه ما استطَعتُم».

وجميعُ الوِلايات الإسلاميَّة مَقصودُها الأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر، لكن من المتولِّين من يكون بمنزلة الشاهد المؤتمَن؛ والمطلوبُ منه الصِّدق، مثل صاحب الدِّيوان الذي وظيفتُه: أن يكتبَ المُستخرَج والمصروف، والنَّقيب والعَرِيف الذي وظيفتُه: إخبار وليِّ الأمر بالأحوال.

ومنهم من يكون بمنزلة الآمر المُطاع؛ والمطلوبُ منه العدل، مثل: الأمير والحاكم والمُحتسِب.

ومدارُ الوِلايات كلِّها على الصِّدق في الإخبار، والعدل في الإنشاء؛ وهما قَرينان في كتاب الله تعالى، وسنَّة رسوله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقًا

وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال، لمَّا ذكرَ الأمراءَ الظَّلَمَة: «مَن صدَّقَهم بكَذبِهم، وأعانَهم على ظُلمِهم - فليس منِّي، ولستُ منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوض، ومن لم يصدِّقهم بكَذبِهم، ولم يُعِنهُم على ظُلمهم - فهو منِّي، وأنا منه، وسيَرِدُ عليَّ الحوض»، وقال تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢١-٢٢٢] فالأفَّاك: الكاذب، والأثيم: الظالم الفاجر، وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾﴾ [العَلق: ١٥-١٦]، وقال النبيُّ ﷺ: «عليكم بالصِّدق؛ فإنَّ الصِّدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة، وإيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يهدي إلى الفُجور، وإنَّ الفُجور يهدي إلى النَّار».

ولهذا يجبُ على كلِّ وليِّ أمرٍ أن يستعينَ في ولايته بأهلِ الصِّدقِ والعدل، والأمثل فالأمثل، وإن كان فيه كَذِبٌ وفجور؛ فإنَّ الله يؤيِّدُ هذا الدِّين بالرجل الفاجر، وبأقوام لا خَلاقَ لهم.

قال عمر رضي الله عنه: «مَن قلَّدَ رجلًا على عِصابة، وهو يجِدُ في تلك العِصابة من هو أرضى لله منه - فقد خانَ الله ورسولَه وجماعةَ المؤمنين»، والغالبُ أنَّه لا يوجد الكامل

في ذلك؛ فيجب تحرِّي خير الخيرَين، ودفعُ شرِّ الشرَّين، وقد كان الصحابة ﷺ يفرحون بانتصار الرُّوم النصارى على المجوس عبَّاد النار؛ لأنَّ النصارى أقربُ إليهم من أولئك، وكان يوسف الصدِّيق عليه السلام نائبًا لعزيز مصر، وهو وقومه مشركون بالله، وفعلَ من الخير ما قدَرَ عليه، ودعا إلى الإيمان بحسَب الإمكان.

إذا عُرف هذا، فعموم الوِلايات وخُصوصها، وما يستفيده المتولِّي بالوِلاية يُتلقَّى من الألفاظ والأحوال والعُرف، وليس لذلك حدٌّ في الشرع؛ فقد يدخل في وِلاية القضاء - في بعض الأزمنة والأمكِنة - ما يدخل في ولاية الحرب في زمانٍ ومكانٍ آخر، وبالعكس، وكذلك الحِسبَة وولاية المال.

وجميع هذه الولايات في الأصل ولايات دينيَّة، ومناصب شرعيَّة، فمَن عدلَ في ولاية من هذه الولايات، وساسَها بعلم وعدل، وأطاعَ الله ورسوله بحسَب الإمكان - فهو من الأمراء الأبرار العادلين، ومَن حكمَ فيها بجهلٍ وظلم، فهو من الظالمين المعتدين، و﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

فولايةُ الحرب في هذه الأزمنة في البلاد الشاميَّة والمصريَّة وما جاورَها تختصُّ بإقامة الحدود؛ من القتل والقطع والجَلد، ويدخل فيها الحكم في دعاوى التُّهم التي ليس فيها شهود ولا إقرار، كما تختصُّ ولاية القضاء بما فيه كتاب وشهود وإقرار من الدَّعاوى التي تتضمَّن إثبات الحقوق، والحكمَ بإيصالها إلى أربابها، والنظرَ في الأبضاع والأموال التي ليس لها وليٌّ معيَّن، والنظرَ في حال نُظَّار الوقوف، وأوصياء اليتامى، وغير ذلك.

وفي بلادٍ أخرى - كبلاد الغرب - ليس لوليِّ الحرب مع القاضي حكمٌ في شيء، إنَّما هو منفِّذ لما يأمر به متولِّي القضاء، وأمَّا ولاية الحِسبَة فخاصَّتها الأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر فيما ليس من خصائص الولاة والقضاة وأهل الدِّيوان ونحوهم، فعلى متولِّي الحِسبَة أن يأمرَ العامَّة بالصلوات الخمس في مواقيتها، ويُعاقبَ من لم يصلِّ بالضرب والحبس، وأمَّا القتل فإلى غيره، ويتعاهدَ الأئمَّة والمؤذِّنين، فمَن فرَّط منهم فيما يجب عليه من حقوق الأمَّة، وخرجَ عن المشروع - ألزمَه به، واستعانَ فيما يعجِز عنه بوالي الحرب والقاضي.

واعتناء ولاة الأُمور بإلزام الرعيَّة بإقامة الصلاة أهمُّ من كلِّ شيء؛ فإنَّها عِماد الدِّين وأساسُه وقاعدته، وكان عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه يكتب إلى عُمَّاله: «إنَّ أهمَّ أمركم عندي الصلاة، فمن حفِظَها وحافظَ عليها حفِظَ دينه، ومن ضيَّعها كان لما سِواها أشدَّ إضاعة».

ويأمر والي الحِسبَة بالجمعة والجماعة، وأداء الأمانة، والصِّدق والنُّصح في الأقوال والأعمال، وينهى عن الخيانة، وتطفيف المكيال والميزان، والغشِّ في الصِّناعات والبياعات، ويتفقَّد أحوال المكاييل والموازين، وأحوال الصُّنَّاع الذين يصنعون الأطعمة والملابس والآلات؛ فيمنعهم من صناعة المحرَّم على الإطلاق؛ كآلات الملاهي، وثياب الحرير للرِّجال، ويمنع من اتِّخاذ أنواع المُسكِرات.

ويمنع صاحبَ كلِّ صناعة من الغشِّ في صناعته، ويمنع من إفساد نقود الناس وتغييرها، ويمنع من جعل النقود مُتَّجَرًا؛ فإنَّه بذلك يدخل على الناس من الفساد ما لا يعلمه إلَّا الله، بل الواجب أن تكون النُّقود رؤوسَ أموال يُتَّجَر بها ولا يُتَّجَر فيها، وإذا حرَّم السُّلطان سِكَّة أو

نقدًا منعَ من اختلاطه بما أُذنَ في المعاملة به.

ومعظم ولايته وقاعدتها: الإنكار على هؤلاء الزَّغَلِيَّة، وأربابِ الغشِّ في المطاعم والمشارب والملابس وغيرها؛ فإنَّ هؤلاء يفسدون مصالح الأمَّة، والضرر بهم عامٌّ، لا يمكن الاحتراز منه؛ فعليه ألَّا يُهمل أمرهم، وأن يُنكِّل بهم أمثالَهم، ولا يرفع عنهم عقوبته؛ فإنَّ البليَّةَ بهم عظيمة، والمَضَرَّة بهم شاملة، ولا سِيَّما هؤلاء الكيماويِّين الذين يغُشُّون النُّقود والجواهر والعطور والطِّيب وغيرها، يُضاهئون بزَغَلِهم وغشِّهم خلق الله، والله تعالى لم يخلق شيئًا فيقدِر العباد أن يخلقوا كخلقه؛ قال تعالى، فيما حكى عنه رسوله صلوات الله وسلامه عليه: «ومَن أظلمُ ممَّن ذهبَ يخلق كخلقي؟! فليَخلُقوا ذرَّةً، فليَخلُقوا شَعِيرةً».

ولهذا كانت المصنوعات - كالطبائخ، والملابس، والمساكن - غيرَ مخلوقةٍ إلَّا بتوسُّط الناس؛ قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصَّافات:

٩٥-٩٦]، وكانت المخلوقات من المعادن والنباتات والدوابِّ غيرَ مقدورة لبني آدمَ أن يصنعوها، لكن يشبِّهون بها على سبيل الغِشِّ، وهذا حقيقة الكيمياء؛ فإنَّها ذهبٌ مُشَبَّه.

ويدخل في المنكرات: ما نهى الله عنه ورسوله من العقود المحرَّمة، مثل: عقود الرِّبا صريحًا واحتيالًا، وعقود المَيسِر، كبيوع الغَرَر؛ كحَبَل الحَبَلَة، والمُلامَسَة، والمُنابَذَة، والنَّجَش، وهو أن يزيد في السِّلعة من لا يريد شراءها، وتَصرِية الدابَّة اللَّبون، وسائر أنواع التَّدليس، وكذلك سائر الحِيَل المحرَّمة على أكل الرِّبا.

فعلى والي الحِسبَة إنكارُ ذلك جميعًا، والنهيُ عنه، وعقوبةُ فاعله، ولا يتوقَّف ذلك على دعوًى ومُدَّعًى عليه؛ فإنَّ ذلك من المنكرات التي يجب على وليِّ الأمر إنكارُها والنهيُ عنها[١].



(١) "الطُّرق الحُكمِيَّة" (ص٢٣٦-٢٤٢)، وأطال ابنُ القيِّم في ذكر أنواع المحرَّمات في البيوع، وأنه يجب على والي الحسبة إنكار ذلك.

ورعه وتقواه

نقرأ في سيرة إياس خِلالًا كريمة، وسجايا حميدة، ونرى في كلماته المأثورة عنه الحثَّ على صفات النُّبلِ والشَّهامةِ والمروءة، وعزَّة النفس، والبُعد عن الكَذِب والغرور، وغيرهما من الرذائل.

فهو يرفض جائزةَ ابنِ هُبَيرَةَ إعزازًا للعلمِ، فيربَأُ به عن الإهانة؛ فهو ليس فقيرًا يحتاج إلى الصَّدقة، ولا يريد أن يأخذ على علمه مالًا، وما دامَ ليس متَّصفًا بإحدى الصِّفتَين؛ فهو لا يقبل تلك الجائزة، وهو يمقُتُ الكذب، ولا يَوَدُّ أن يكذبَ ولا مرَّة واحدة، وإن كانت في الخَفاء، ولو أُعطيَ مقابلَها من الدُّنيا ما أُعطي.

ويتورَّع عن مدح صديق له عالم كريم؛ حتى لا يكونَ متملِّقًا مادحًا، وأحسبه تحرَّجَ ممَّا وردَ في الحديث: «إذا رأيتُم المدَّاحين فاحْثُوا في وجوههم التُّراب».

وإياس بعدُ يتصدَّق، ويهُبُّ إلى نجدة الملهوف، ويحثُّ على الصدقة والبذل في وجوه الخير، وغير ذلك من أعمال وأقوال زاكية رفيعة.

لمَّا بُعثَ إلى ابن سِيرينَ والحسن وأولئك قَدِموا على ابن هُبَيْرَة، فقال محمَّد لمَّا دخلَ عليه: السلام عليكم، وكان ابنُ هُبَيرةَ متكئًا فجلس، وكان معه أبو الزِّناد، فقال له: كيف مَن تركت؟ قال: تركتُ الظُّلمَ فيهم فاشيًا، فهَمَّ به، فجعل أبو الزِّنَاد يقول له: إنَّه شيخ..إنَّه..إنَّه.

قال: فجاءَ لإياس بن معاويةَ بجائزة، فقال: لا حاجةَ لي فيها؛ فقال: أتَرُدُّ جائزة الأمير؟! قال: ولِمَ يُعطيني؟ أيتصدَّقُ عليَّ؟ فقد أغناني الله، أو يُعطيني على علمي أجرًا؟ فلا آخُذ عليه أجرًا.

قال الأنصاري: وكانت جائزته عشرة آلاف[1].

قال عبد الله بن مسلم القُرَشي: كان إياسٌ يقول: ما أحبُّ أنِّي أكذب كذبةً لا يطَّلع عليها إلَّا الله، ولا أُؤاخذ بها يوم القيامة، وأنَّ لي مفروحًا به من الدُّنيا[2].

ذكروا يومًا عند معاوية بن قُرَّة ابنَه إياسًا، فعابوه؛ فقال معاوية: ما أدري ما تقولون، أمَّا هو فيتصدَّق بألف

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٢).
(٢) "حلية الأولياء" (٣/ ١٢٣).

درهم أسهلُ عليه من شيء يسير عليَّ[(١)].

وذكر صوَّافٌ في السُّوق: أنَّ إياس بن معاوية باعَ أرضًا له بعشرة آلاف، فكان يأخذ كلَّ يوم منِّي أربعمئة يقسِّمها في الأعراب في حَطْمَةٍ كانت[(٢)].

وقال صالح بن سليمان: كان إياسٌ يستقرض على عطائه، ويتصدَّق، حتى يخرج عطاؤه[(٣)].

وعن أبي بشر، قال: أطافَ الناس بإياس بن معاوية، فسألوه عن هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعَام: ١٤١]، قال: الإسراف ما قصَّرتَ فيه عن حقِّ الله عَزَّ وَجَلَّ[(٤)].

وروى أبو الحسن المَدائني؛ قال: دخلَ رجل على إياس بن معاوية، فشكا إليه شدَّة المؤونة، وكثرةَ الإنفاق؛ فقال له إياس: إنَّ النَّفقة داعيةُ الرِّزق، وهو جالس بين بابَين؛ فقال للرجل: أغلِق هذا الباب، فأغلقَه، فقال: هل

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٨).
(٢) نفس المرجع والصفحة، والحَطْمَةُ: السنة الشديدة.
(٣) المرجع السابق (١/ ٣٥٤).
(٤) "حلية الأولياء" (٣/ ١٢٤).

يدخل الرِّيحُ البيت؟ قال: لا، قال: فافتَحه، ففتحَه، فجعلت الرِّيحُ تخرِق البيت، فقال: هكذا الرِّزق، أغلقتَ فلم يدخل الرِّيح؛ وكذلك إذا أمسكتَ لم يأتك شيء[١].

قالَ إياس بن معاوية: كلُّ بنيانٍ بُنيَ على أساس أعوجَ لم يستقم بُنيانه[٢].

وقال العَوَّامُ بن حَوْشَب: التقيتُ أنا وإياس بن معاويةَ بذات عِرْق، فذكرت إبراهيم - يعني التَّيْميَّ - فقال: لولا كرامته عليَّ لأثنيتُ عليه، فقلت: أتعرفه؟ قال: نعم؛ قلت: فلِمَ تكره أن تثنيَ عليه؟ قال: إنَّه كان يُقال: إنَّ الثَّناء من الجَزاء[٣].

عن ابن شُبْرُمَة؛ قال: قال لي إياس بن معاوية: إيَّاك وما يتتبَّع الناس من الكلام، وعليك بما تعرفه من القضاء[٤].

قال شُعيب - بيَّاع الطَّيالِسَة -: سمعت معاويةَ بن قُرَّة

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٤).
(٢) المرجع السابق (١/ ٣٥٦).
(٣) المرجع السابق (١/ ٣٥٧).
(٤) المرجع السابق (١/ ٣٥٩).

يقول: علَّمتُ إياسًا سبع سنين، ثم لم يزل يعلِّمني[١].

قال سفيانُ بن الحسين: قلت لإياس بن معاوية: ما المروءةُ؟ قال: أمَّا في بلدك وحيث تُعرف فالتَّقوى، وأمَّا حيث لا تُعرف فاللِّباس[٢].

وقال حمَّاد: دخلَ إياس على عَدِيٍّ بن أَرْطاة، فقال له عَدِي: إنَّك لسريع المِشيَة؛ قال: ذلك أبعدُ من الكِبر، وأقضى للحاجة[٣].

وعن سفيانَ بن حسين، قال: قال لي إياس بن معاوية: أراكَ تطلب الأحاديث والتفسير، فإيَّاك والشَّفاعة؛ فإنَّ لها ذُلًّا[٤].

وعن أبي النَّضْر؛ قال: قِيلَ لإياس بن معاوية: ما دينُك؟ قال: ديني دينُ امرأتي وبنتي[٥].

قال إياس بن معاوية: إنَّه إن يكُ في فِعال الرجل

---

(١) المرجع السابق (١/ ٣٦٠).
(٢) المرجع السابق (١/ ٣٥٣).
(٣) المرجع السابق (١/ ٣٧٢).
(٤) المرجع السابق (١/ ٣٧١).
(٥) المرجع السابق (١/ ٣٧٢-٣٧٣).

فضلٌ عن قوله، أجملُ من أن يكون في قوله فضلٌ عن فِعاله[١].

وقال ابنُ شَوْذَب: سمعتُ إياس بن معاوية يقول: ما بَعُدَ عهدُ قوم بنبيِّهم؛ إلَّا كان أحسنَ لقولهم وأسوأَ لفعلهم[٢].



(١) المرجع السابق (١/ ٣٥٠).
(٢) المرجع السابق (١/ ٣٥٥).

بِرُّه بوالديه

كان إياسٌ بَرًّا بوالديه، محبًّا لهما، متواضعًا معهما، يعاملهما بلطفٍ وأدبٍ، ورعايةٍ لحقِّهما عليه، وحبٍّ متأصِّل في النفس، وقد عَرَفَ له والداه بِرَّه بهما، وحنانه عليهما.

ونوَّهَ والده - معاوية، الرجل الصالح - بحسن أدب إياس معهما، وشفقته عليهما، وقيامه بالواجب حيالَهما، ولا شَكَّ أنَّهما كانا يتوجَّهان إلى الله بقلوبٍ مُفعَمة بالخوف والرجاء، سائلين الله تعالى أن يوفِّقَ ابنهما، وأن يكلَأهُ بعنايته، ويحوطَه بتسديده؛ حتى يكون ممَّن ينطبق عليه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، ولعلَّ الله استجابَ دعاءهما، وباركَ في ولدهما، فكان إياس قُرَّة عينٍ لهما، وسببَ راحتهما.

عن خالد الحَذَّاء: قِيلَ لمعاوية بن قُرَّة: كيف ابنُك لك؟ قال: نِعمَ الابن؛ كفاني أمرَ دنياي، وفرَّغني لأمر

آخرتي[١].

وروى سفيان بن حسين، أنَّ إياسًا قال له: قُم معي حتى أسترضيَ أمِّي؛ لأنَّها خرجت وهي غاضبة، فدنا من ظُلَّة، وخرجَت إليه أمُّه، فجلسَ بين يدَيها، واضعًا يديه على خدَّيه، منكِّسًا رأسه طويلًا، ثم قام، فقال لي: اذهَب بنا فقد رضيَت[٢].

وقال حمَّاد: لمَّا ماتت أمُّ إياس بكى؛ فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: كان لي بابان فأُغلِقَ أحدهما[٣].

عن عبد الله بن بكر السَّهْمي: أنَّ إياس بن معاوية كان في حَلْقة، وذكروا: الولد أبرُّ أم الوالد؟ فأجمعَ رأيُهم على أنَّ الوالد أبرُّ، واشتغلَ إياس في شيء، فلمَّا فرغَ أقبلَ عليهم، فأخبروه، فقال: إنِّي أخالفكم؛ إنِّي أزعم أنَّهما إذا كانا بَرَّين جميعًا، فالولد أبرُّ، قالوا: وكيف؟! قال: لأنَّ بِرَّ الوالد لولده طِباع يطبعه الله عليه، لا يستطيع إلَّا

---

(١) "الطبقات الكبرى" لابن سعد (٧/ ٢٣٤)، و"دائرة معارف القرن العشرين" (١/ ٧٩١)، و"أخبار القضاة" (١/ ٣٤٤)، "حلية الأولياء" (٣/ ١٢٤).

(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٤).

(٣) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٤).

ذاك، وبِرَّ الولد لوالده تشدُّدٌ منه؛ لما افترضَ الله عليه من حقِّه(١).



(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٦-٣٥٧).

معرفته بالناس

قالَ أحدُ المقرَّبين من إياس - راويًا ما حدَّثه به إياس عن بعض علماء عصره - قولًا ينكشف منه مدى معرفة إياس لمعاصريه، وفهمه لهم، وصراحته في إبداء النُّصح، والظاهر أنَّ الراويَ قد استشارَ إياسًا فيمَن يأخذ عنه العلم، وسمَّى أشخاصًا يريد أن يسمع رأيَ إياس فيهم؛ وإزاءَ ذلك أبدى إياس قوله صريحًا، لم يجبُن ولم يغُشَّ، ولم يتملَّص من الإجابة، وقد كان في مقدوره أن يفعل.

وكأنَّه تذكَّر حديثَ الرَّسول ﷺ حين استشارت فاطمةُ بنت قيس النبيَّ ﷺ في خُطَّابها، فعدَّدَ ما فيهم؛ قيامًا بالنُّصح، فقال: «أمَّا معاوية فصعلوكٌ لا مالَ له، وأمَّا أبو جَهْم فلا يضعُ عصاه عن عاتقه، انكِحي أسامة».

روى حَبيب بن الشَّهيد؛ قال: قال لي إياس بن معاوية: إن أردتَّ الفِقهَ فعليكَ بمعلِّمي ومعلِّم أبي: الحسن بن أبي الحسن، فإن أردتَّ الفُتيا فعليكَ بعبد الملك بن يَعْلى، وإن أردتَّ القضاء فعليكَ بعَبَّاد بن

منصور، وإن أردتَّ الصَّلاح فعليك بحُمَيد الطويل، وإن أردتَّ الشَّغْب فعليك بصالح السَّدُوسي، وتدري ما يقول حُمَيد؟ يقول: دَع بعض حقِّك، وأخِّر بعضه، وخُذ بعضه، وتدري ما يقول صالح السَّدُوسي؟ اجحَد ما عليكَ وادَّعِ ما ليس لك، وادَّعِ بَيِّنَةً غَيْباء[١].

عن سفيان قال: قِيلَ لإياس بن معاوية: من أعلم أهل مَكَّة؟ قال: أسوأهم خلقًا: عَمرو بن دينار[٢].

وقال إياس بن معاوية: لا بدَّ للناس من ثلاثة أشياء؛ لا بدَّ لهم من أن تأمَنَ سُبُلهم، ويُختارَ لحُكمهم؛ حتى يعتدلَ الحُكم بينهم، وأن يُقامَ لهم بأمر البعوث التي بينهم وبين عدوِّهم؛ فإنَّ هذه الأشياء إذا قامَ بها السُّلطان احتملَ الناس ما سوى ذلك من أَثَرة، وكثيرًا ممَّا يكرهون.



(١) "أخبار القضاة"(١/ ٣٤٩-٣٥٠).
(٢) "أخبار القضاة"(١/ ٣٧١).

ثقافةٌ واسعة

المتتبِّعُ لسيرة إياس، والملاحظ لأقواله يرى مثقَّفًا واسعَ الاطِّلاع، غزير العلم، يخوض في كلِّ علم، من فقهٍ وحديثٍ وتفسير وتاريخٍ وأدبٍ وفِراسةٍ واقتصادٍ وسياسةٍ وطبٍّ.

تذاكروا عند إياس الدُّنيا، فقال: ما تعجبون من الدُّنيا؟! وإنَّما هي خمس نبات، وخمس حيوان، ثم يعود إلى ثلاث؛ فالحيوانُ ذو رجلَين، وذو أربع، وخَرَشَة (ذُبابة)، وسمكة، والنباتُ شجرة ذات ساق، وغير ذات ساق، وبَقلَة، وزرع، وحشيشة، وتعود إلى ثلاثة؛ ولاد، وبيضة، ونبات[1].

قال الأصمعيُّ: قال إياس بن معاوية: النَّخلُ إنَّما يطول في كلِّ أرض بطنُها عذب، فأمَّا الأرض المِلْح؛ فإذا وصلَ العِرقُ إلى المِلْح كفَّ[2].

---

(١) "أخبار القضاة"(١/ ٣٧٠).
(٢) "أخبار القضاة"(١/ ٣٦٦).

وقال إياس: الشَّبُّوط ليس له بَيض، وهو بين البنِّي والسيم[١]، بمنزلة البغل بين الفرس والحمار، وليس له نَسل[٢].

مرَّ إياس بدِيك ينقُر الحبَّ، ولا يُقَرقِر، فقال: ينبغي أن يكون هذا هَرِمًا؛ فإنَّ الهَرِمَ إذا أُلقيَ له الحبُّ لم يُقرقِر؛ ليجتمع إليه الدجاج، والشَّابَّ إذا أُلقيَ إليه الحبُّ قَرقَر، واجتمعَت إليه الدجاج[٣].

عن حمَّاد بن سَلَمَة، قال: دخلت على إياس بن معاوية، وبين يدَيه رُطَب سكَّر، وهو يأكل، فقال: ادْنُ فكُل؛ فإنَّه يزيد في العقل[٤].

عن أبي العبَّاس الهلالي، قال: قَدِمَ إياس واسطًا، فقال الناس: قَدِمَ البصريُّ؛ فقال ابن شُبْرُمَة: انطلقوا إلى

---

(١) في "كتاب الحيوان" للجاحظ (١/ ١٤٩/ ط. عبد السلام هارون): «فمن الباطِل زعمُهم أنَّ الشَّبُّوط [وهو نوع من السمك] ولد الزَّجْر من البُنِّيِّ، وأنَّ الشَّبُّوط لا يُخلَق من الشَّبُّوط، وأنَّه كالبغل في تركيبِه وإنسالِه، ورَوَوا ذلك عن أبي واثلِةَ إياسِ بنِ معاويةَ بن قرَّة». (الألوكة)

(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦١).

(٣) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٥).

(٤) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٥).

البصريِّ نسأله، فجاء، وسلَّم وجلس، فقال: أتأذن أصلحك الله أن أسألك؟ فقال: ما ارتَبتُ بكَ حتى استأذَنتني! فإن كانت مسألةً لا تؤذي الجليس، ولا تَشُقَّ على المسؤول.

فسألَه عن اثنتين وسبعين مسألة، كلُّها يختلفان فيها، فيردُّه إياس إلى قوله، إلَّا مسألتين، فإنَّهما كانا على الاختلاف فيهما[١].

وكان إياس يقول: شرقيُّ كلِّ بلد أكثر أهلًا من غربيِّه، ومن قرُبَ من النهر كان أقلَّ آنيةً ممَّن بَعُد من النهر[٢].

عن عَنْبَسَةَ، قال إياس: لا تُزَوَّج المرأة إذا كانت تُكَلَّم فتسمع، فتمشي فتسرع، ولا تُزَوَّج صغيرة الرأس؛ فإنَّ عقلَها في رأسها[٣].

وحدَّث صالح بن سليمان، قال: خرجَ قومٌ من أهل واسِط من التجَّار إلى عَبدسِي؛ فقالوا: نأتي إياس بن

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٨-٣٥٩).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٢).
(٣) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٦).

معاوية، فنسلِّم عليه، فأتَوه، فقال لَهُم: يا معاشر التجَّار، احفظوا عنِّي خِصالًا ثلاثًا تنتفعون في تجارتكم؛ لا يشتري الرجل بأكثر من ماله؛ فإن كانت وضيعةً أتت على رأس ماله كلِّه، ولا يشارك إلَّا شريكًا واحدًا، فإن أكثر فاثنين؛ فإنَّ الشُّركاء إذا كَثُروا تواكَلوا، ولا يشتري من رجلٍ له بضاعة ليس له غيرُها؛ فإنِ التَوى أمرٌ أو أصابته نَكْبَةٌ لم يعذِره، وألحَّ عليه وخَرِقَ به؛ اشتروا من أهل السَّعَة واليَسار؛ فإنَّهم يؤخِّرون ويحتملون(١).

وهذه النظرةُ الاقتصاديَّة الفاحصة تدلُّ على سَعَةِ اطِّلاع إياس في الناحية الاقتصاديَّة، وصواب رأيه فيها.



---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥١).

ذكاء إياس

ذكاء إياس ممَّا تداولَه الرُّواة، وتناقلَته الرُّكبان، ورواه الناس جيلًا بعد جيل، وضُربت به الأمثال؛ قال أبو تمَّام:

إقدامَ عَمرٍو في سماحةِ حاتمٍ
في حِلمِ أَحْنَفَ في ذكاءِ إياسِ(١)

وهو اللَّسِنُ البليغ، والألمعيُّ المصيب، والمعدود مثلًا في الذكاء والفِطْنة، ورأسًا لأهلِ الفصاحةِ والرَّجاحة، كان صادقَ الظنِّ، لطيفًا في الأمور، مشهورًا بفَرْطِ الذكاء، وبه يُضرَب المثل في الذكاء، وإيَّاه عنى الحريريُّ في "المقامات" بقوله في المقامة السابعة: «فإذا أَلمَعِيَّتي أَلمَعيَّةُ ابن عبَّاس، وفِراسَتي فِراسةُ إياس»، وكان إياس أحدَ العقلاء الفضلاء الدُّهاة(٢).

وله في هذا الباب من الفِراسة أشياءُ غريبةٌ كثيرة، ولولا خوفُ الإطالة لبسطت القولَ في ذلك، وبعض

---

(١) "ديوان أبي تمَّام" (ص٥٢٥).
(٢) "وفَيات الأعيان" (١/ ٢٤٦-٢٤٧).

العلماء قد جمعَ جزءًا كبيرًا من أخباره[١].

وكان ثقةً، وكان قاضيًا على البصرة، وله أحاديث، وكان عاقلًا من الرِّجال فَطِنًا[٢].

وكان يُضربُ المثل بذكائه؛ قال عنه محمَّد بن سِيرين: إنَّه لفَهِمٌ فَهِم.

وقال محمَّد بن سعد والعِجْليُّ وابن مَعِين والنَّسائي: ثقة، زادَ ابن سعد: وكان عاقلًا من الرِّجال فَطِنًا، وزادَ العِجْليُّ: وكان فقيهًا عفيفًا[٣].

القاضي القائف، وصاحب الزَّكَنِ، والمعروف بجودَةِ الفِراسة[٤].

وجملةُ القول في إياس: أنَّه كان من مفاخر مُضَر، ومن مُقَدَّمي القُضاة، وكان فقيهَ البَدَن، دقيقَ المَسلَك في الفِطَن، وكان صادقَ الحَدْس نِقَابًا، وكان عجيبَ الفِراسة مُلْهَمًا، وكان عفيفَ المَطعَم، كريمَ المَداخل والشِّيَم،

---

(١) "وفَيات الأعيان" (١/ ٢٤٩).
(٢) "الطبقات الكبرى" (٧/ ٢٣٤).
(٣) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٤).
(٤) "البيان والتبيين" (١/ ١٠٠).

وجيهًا عند الخلفاء، مُقَدَّمًا عند الأكفَاء[١].

أبو واثِلَةَ قاضي البصرة، وأحد أعاجيب الدَّهر في الفِطنة والذكاء، يُضرَب المثل بذكائه وزَكَنه[٢].

وللمدائِنيِّ كتاب سمَّاه: "زَكَنُ إياس"[٣].

قال سفيان بن حسين: لمَّا قَدِمَ إياس بن معاوية واسِطًا جعلوا يقولون: قَدِمَ البصريُّ! قَدِمَ البصريُّ! فجاءه ابنُ شُبْرُمَةَ بمسائلَ قد أعدَّها، فقال: أتأذنُ لي أن أسألك؟ قال: سَل، وقد ارتبتُ حين استأذنت!

فسألَه عن سبعين مسألة، يُجيبه فيها، ولم يختلفا إلَّا في أربع مسائل؛ ردَّه إياسٌ إلى قوله.

ثم قال له إياس: أتقرأُ القرآن؟ قال: نعم، قال: أتحفظُ قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المَائدة: ٣]؟ قال: نعم.

قال: وما قبلها وما بعدها؟ قال: نعم.

---

(١) "البيان والتبيين" (١/ ١٠٣).
(٢) "الأعلام" (٢/ ٣٣).
(٣) "الأعلام" (٢/ ٣٣).

قال: فهل أبقَت هذه الآية لآل شُبْرُمَةَ شيئًا ينظرون فيه؟ فقال: لا.

فقال له إياس: إنَّ للنُّسك فروعًا - قال: فذكرَ الصَّوم والصَّلاة والحجَّ والجهاد - وإنِّي لا أعلمك تعلَّقتَ من النُّسك بشيء أحسنَ من شيء في يدكَ؛ النظر في الرأي[١].

قال رجل لإياس بن معاوية: يا أبا واثِلَة، حتى متى يبقى الناس، وحتى متى يتوالد الناس ويموتون؟ فقال لجلسائه: أجِيبوه.

فلم يكن عندهم جواب، فقال إياس: حتى تتكاملَ العِدَّتان؛ عِدَّة أهل الجنَّة وعِدَّة أهل النار، فعندَ ذلك لا يكون ميلاد[٢].

قالوا: ومن نوادر زَكَنِه - يعني إياسًا - أنَّه رأى قومًا يأكلون تمرًا، ويُلقون النوى متفرِّقًا، فرأى الذباب يجتمعن في موضع من التمر، ولا يقربنَ موضعًا آخر، فقال إياس: إنَّ في هذا الموضع حَيَّةً، فنظروا، فوجدوا الأمر كما

---

(١) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٦٥)، "الطبقات الكبرى" (٧/ ٢٣٤-٢٣٥).
(٢) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٥)، و"حلية الأولياء" (٣/ ١٢٣).

قال، فقيل له: من أين علمت؟ قال: رأيتُ الذُّباب لا يَقرُب هذا الموضع، فقلت: يجد به ريحَ سمٍّ، فقلت: حَيَّة.

ونظرَ إلى ديك ينقُر ولا يُقرقر، فقال: هذا هَرِمٌ؛ لأنَّ الشابَّ إذا وجدَ حبًّا نقره وقَرقَر؛ ليجتمعَ الدَّجاجُ إليه.

ورأى جاريةً في المسجد وعلى يدها طبقٌ مُغَطًّى بمنديل، فقال: معها جرادٌ، فكان كما قال، فسُئل، فقال: رأيته خفيفًا على يدها[١].

وفي "دائرة معارف القرن العشرين"[٢]: القاضي البليغ، صاحب الفِراسات المُدهِشَة، المعدودة في الذكاء آية، كان صادقَ الظَّنِّ، مشهورًا بالذكاء، ضُربَت به الأمثال في صدق الفِراسة، إيَّاه عنى الحريري بقوله في المقامة السابعة: «فإذا ألمعِيَّتي ألمعيَّةُ ابن عبَّاس، وفِراسَتي فِراسةُ إياس».

وفي "دائرة المعارف الإسلاميَّة"[٣]: وصارَ يُضرب به

(١) "مَجمع الأمثال" للميداني (١/ ٣٢٥).
(٢) (١/ ٧٩١).
(٣) (٣/ ١٧١).

المثل في الأدب العربي؛ لحضور بديهته، فقِيل: أَزْكَنُ من إياس، وقد رُويَ عن ذكائه أخبارٌ كثيرة، جمعها كاتبٌ متقدِّم هو المَدائِنيُّ في كتاب يُسَمَّى: "زَكَنَ إياس"، وبهذا صارَ إياسٌ من المشاهير في الأدب.

ودخلَ مدينة واسِط، فقالَ لأهلها بعد أيَّام: يومَ قَدِمتُ بلدكم عرفتُ خِيارَكم من شِراركم، قالوا: كيف؟ قال: معنا قومٌ خِيار أَلِفوا منكم قومًا، وقومٌ شِرار أَلِفوا قومًا؛ فعلمتُ أنَّ خياركم مَن أَلِفَهُ خيارُنا، وكذلك شراركم[1].

قال الحافظُ الذهبيُّ في "ميزان الاعتدال": «إياس بن معاوية بن قُرَّةَ؛ تابعيٌّ، ثِقَةٌ، نبيلٌ، وقال النَّسائي: تكلَّموا فيه».

قال الذهبيُّ مُعَقِّبًا: «قلت: وثَّقَهُ ابن مَعِين، وساقَ له مسلمٌ في مُقَدِّمة "صحيحه"، وخرَّجَ له البخاريُّ تعليقًا، يُكنَى أبا واثِلَة، وَلِيَ قضاء البصرة، وحدَّثَ عن أنس، وابن المسيّب، وأبي مِجْلَز، وعنه: شُعْبَة، والحَمَّادان،

(١) "الأعلام" للزركلي (١/ ٣٧٦).

وعِدَّة».

يُضرَب المثل بذكائه وعقله وفصاحته، وإحكامه في فِطنَته، تُوفِّي سنة اثنتين وعشرين ومئة[١].

ومن كتاب "الخلاصة في أسماء الرِّجال"[٢]: «إياس ابن معاويةَ بن قُرَّةَ المُزَني أبو واثِلَة البصري، القاضي.

عن: أبيه، وأنس، وابن المسيّب، وعنه: الأعمش، وأيُّوب، والحَمَّادان.

وثَّقَهُ ابنُ سعد وابن مَعِين».

قال إياس: مَن عَدِمَ فضيلة الصِّدق، فُجِعَ بأكرم أخلاقه.

وقال: كلُّ ديانة أُسِّست على غير ورع فهي هَباء.

وقال خليفةُ: مات بواسِط، سنة اثنتين وعشرين ومئة[٣].

وقال قائلٌ لإياس: لمَ تَعجَل بالقضاء؟! فقال له

---

(١) (١/ ٢٨٣).
(٢) (ص٣٦).
(٣) (ص٣٦).

إياس: كم لكفِّكَ من إصبَع؟ قال: خمس، قال: عَجِلتَ! قال: لم يعجَل من قال بعدما قتلَ الشيء عِلمًا ويقينًا، قال إياس: فهذا هو جوابي لك.

وكان كثيرًا ما يُنشد قول النابغة الجَعْدِيِّ:

أبى لِي البَلاءُ وأنِّي امرُؤٌ
إذا ما تَبَيَّنْتُ لمْ أَرْتَبِ

قال: ومدحَ سَلَمَة بن عيَّاش سَوَّارَ بن عبد الله، بمثل ما وصفَ به إياسٌ نفسَه حين قال:

وأَوقَفَ عندَ الأمرِ ما لم يَضِح لَهُ
وأمضى إذا ما شَكَّ مَن كان ماضيا(١)

قال سفيان الثَّوري: قال إياس بن معاوية: ما وجدتُّ القضاء إلَّا ما يستحسن الناس.

وقال مَعْمَر: قال إياس بن معاوية: قِيسوا القضاء ما صلحَ الناس، فإذا فسَدوا، فاستحسنوا.

وقال رجل لإياس بن معاوية: علِّمني القضاء! فقال: إنَّ القضاءَ لا يُعَلَّم، إنَّ القضاءَ فَهْمٌ، ولكن قُل: عَلِّمني

---

(١) "البيان والتبيين" (١/ ١٠٢).

العلم.

قال ابن القيِّم - مُعلِّقًا على هذا القول -: وهذا هو سرُّ المسألة؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]، فخصَّ سليمان بفَهْم القضيَّة، وعمَّهما بالعلم، وكذلك كتبَ عمر إلى قاضيه أبي موسى في كتابه المشهور: «الفَهْمَ الفَهْمَ فيما أُدلِيَ إليك».

والذي اختُصَّ به إياس وشُرَيْح، مع مشاركتهما لأهل عصرهما في العلم: الفَهْم في الواقع، والاستدلال بالأمارات وشواهد الحال، وهذا الذي فاتَ كثيرًا من الحكَّام، فأضاعوا كثيرًا من الحقوق(١).

قِيلَ لإياس بن معاوية: لولا ثلاثُ خِصالٍ فيكَ ما كان في الدُّنيا مثلُك، قال: وما هنَّ؟ قيل له: تُسرع في القضاء بين الخَصمَين إذا أَدلَيا إليك، قال: وماذا؟ قيل: وتُجالس الدُّونَ من الناس، قال: وماذا؟ قيل: وتلبَس

---

(١) "الطُّرق الحُكميَّة" (ص٣٤).

الدُّون من الثِّياب.

قال: أمَّا قولك: تُسرع في القضاء بين الخَصمين، فخمسةٌ أكثر أو ستَّةٌ؟ قالوا: ستَّة، قال: لقد أسرعتم في الجواب! قالوا: ومن يشكُّ في خمسة وستَّة؟! قال: فأنا لا أشكُّ في ذلك الدقيق، كما تشكُّون أنتم في هذا الجليل، فما لي أدفعُه عن حقِّه؟!

وأمَّا قولكم: أُجالسُ الدُّون من الناس؛ فلأن أُجالسَ من يعرف لي قدري أحبُّ إليَّ من أن أُجالسَ من لا يعرف لي قدري، وأمَّا قولكم: ألبَس الدُّون من الثِّياب، فلأن ألبَسَ ثوبًا يقيني؛ أحبُّ إليَّ من أن ألبَسَ ثوبًا أَقِيه بنفسي[1].

وذكرَ الواسِطِيُّون أنَّ سفيان بن حسين قال: كان إياسٌ جالسًا، فنظرَ إلى رجلٍ دخلَ المسجد، فقال: هذا الرجل من أهل البصرة، من ثَقِيف، قد أرسلَ حَمامًا له، فذهبَ ولم يرجع إليه.

فقام رجلٌ، فسألَ ذلك الرجل، فأخبرَه عن نفسه بما

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣١٦-٣١٧)، و"البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٧).

قالَ إياس؛ فسُئل إياس، فقال: أمَّا معرفةُ البصريِّ فلا أُحمَد عليه، وأمَّا قولي: ثَقَفيٌّ، فإنَّ لثَقِيفٍ هيئةً لا تخفى، وأمَّا قولي: فقدَ حَمامًا له، فإنِّي رأيته يتصفَّح الحَمام؛ لا يرى ناهضًا ولا طائرًا ولا ساقطًا إلَّا نظرَ إليه، فقُلت: قد فَقَدَ حَمامًا لنفسه.

وعن صالح بن مسلم، عن إياس بن معاوية، قال: لو جلستُ على باب واسِط لم يمرَّ بي أحدٌ إلَّا أخبرتكم بعمله وصناعته[١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحِجر: ٧٥]؛ قال مجاهد: للمُتفرِّسين.

وروى ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد مرفوعًا، قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا فِراسةَ المؤمن؛ فإنَّه ينظرُ بنور الله»، ثم قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحِجر: ٧٥]؛ ورواه التِّرمذيُّ، وابنُ جرير، وروى ابنُ جرير من حديث ابن عمر مثله.

وعن ثَوبان؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «احذَروا

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٩).

فِراسةَ المؤمن؛ فإنَّه ينظر بنور الله، وبتوفيق الله»؛ رواه ابن جرير.

وروى البَزَّار وابنُ جرير عن أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله عبادًا يعرفون الناس بالتوسُّم»(١).

قال ابن القيِّم في "الطُّرق الحُكميَّة": «فالشارع لم يُلغِ القرائن والأمارات ودلائل الأحوال، بل من استقرأ الشَّرع في مصادره وموارده وجدَه شاهدًا لها بالاعتبار مرتِّبًا عليها الأحكام.

وقول أبي الوفاء ابن عقيل: «ليس هذا فِراسَة»، فيُقال: ولا محظورَ في تسميته فِراسَة؛ فهي فِراسَة صادقة، وقد مدحَ اللهُ ﷻ الفِراسَة وأهلَها في مواضعَ من كتابه؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، وهم: المتفرِّسون، الآخذون بالسِّيمَا، وهي: العلامة، يقال: تفرَّستُ فيكَ كَيْتَ وكَيْتَ، وتوسَّمته.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ

---

(١) "تفسير ابن كثير" (٢/ ٥٥٥).

﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾ [محمد: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وفي "جامع التِّرمذي" مرفوعًا: «اتَّقُوا فِراسةَ المؤمن؛ فإنَّه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾.

وذكرَ ابنُ القيِّم في "الطُّرق الحُكميَّة" في الحكم بالقرائن وشواهد الحال: ومن ذلك قول الشاهد الذي ذكرَ الله شهادته ولم يُنكرها، بل لم يَعِبه، بل حكاها مقرِّرًا لها؛ فقالَ تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [يوسف: ٢٥-٢٨]؛ فتوصَّلَ بقَدِّ القميص إلى تمييز الصادق من الكاذب، وهذا لَوْثٌ

في أحد المتنازعَين يَبينُ به أَولاهُما بالحقِّ[١].

قال ابن القيِّم في "الطُّرق الحُكميَّة"[٢]: ولله فِراسَة من هو إمام المتفرِّسين، وشيخ المتوسِّمين: عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه! الذي لم تكن تُخطئ له فِراسَة، وكان يحكم بين الأمَّة بالفِراسَة المؤيَّدة بالوحي.

قال اللَّيثُ بن سعد: أُتيَ عمر بن الخطَّاب يومًا بفتًى أمرَد، وقد وُجِدَ قتيلًا مُلقًّى على وجه الطريق، فسأل عمر عن أمره واجتهَد، فلم يقف له على خبر، فشقَّ ذلك عليه، فقال: اللهمَّ أظفِرني بقاتله، حتى إذا كان على رأس الحَول وُجِدَ صبيٌّ مولود مُلقًّى بموضع القتيل، فأُتيَ به عمر، فقال: ظَفِرت بدم القتيل إن شاء الله تعالى.

فدفعَ الصبيَّ إلى امرأة، وقال: قومي بشأنه، وخُذي منَّا نفقته، وانظُري من يأخذه منك، فإذا وجدتِّ امرأة تقبِّله وتضمُّه إلى صدرها فأعلِميني بمكانها، فلمَّا شبَّ الصبيُّ جاءت جارية، فقالت للمرأة: إنَّ سيِّدتي بعثتني إليك لتبعثي بالصبيِّ لتراه وتردَّه إليك، قالت: نعم، اذهبي

(١) (ص٦٢)، وقد ذكر أدلَّةً كثيرةً وأمثلةً عديدةً في الموضوع.
(٢) (ص ٢٨-٢٩).

به إليها وأنا معك.

فذهبت بالصبيِّ والمرأةُ معه، حتى دخلت على سيِّدتها، فلَّما أخذته فقبَّلته وضمَّته إليها، فإذا هي ابنةُ شيخ من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، فأتَت عمر فأخبرته، فاشتملَ على سيفه، ثم أقبلَ إلى منزل المرأة، فوجدَ أباها متَّكِئًا على باب داره، فقال له: يا فلان ما فعلت ابنتُك؟ قال: جزاها الله خيرًا يا أمير المؤمنين؛ هي من أعرف الناس بحقِّ الله وحقِّ أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها، فقال عمر: أحببت أن أدخلَ إليها فأزيدَها رغبةً في الخير وأحثَّها عليه.

فدخلَ أبوها ودخلَ عمر معه، فأمرَ من عندها فخرج، وبقيَ هو والمرأة في البيت، فكشفَ عمر عن السَّيف، وقال: اصدقيني وإلَّا ضربت عنقك! - وكان لا يكذب - فقالت: على رِسلِكَ! فواللهِ لأصدقنَّ؛ إنَّ عجوزًا كانت تدخل عليَّ فأتَّخذها أمًّا، وكانت تقوم من أمري بما تقوم به الوالدة، وكنت لها بمنزلة البنت، حتى مضى لذلك حين، ثم إنَّها قالت: يا بنيَّتي إنَّه عَرَضَ لي سفر، ولي ابنةٌ في موضع أتخوَّف عليها فيه أن تضيع، وقد أحببتُ أن

أضمَّها إليك حتى أرجعَ من سفري!

فعمدَت إلى ابنٍ لها شابٍّ أمرَد، فهيَّأته كهيئة الجارية، وأتتني به لا أشكُّ أنَّه جارية، فكان يرى منِّي ما ترى الجارية من الجارية، حتى اغتفلَني يومًا وأنا نائمة، فما شعَرتُ حتى علاني وخالَطني، فمدَدتُّ يدي إلى شَفرةٍ كانت إلى جانبي فقتلته، ثم أمرتُ به، فأُلقيَ حيث رأيت، فاشتملتُ منه على هذا الصبي، فلمَّا وضعته ألقيتُه في موضع أبيه، فهذا والله خبرهما على ما أعلمتُك! فقال: صدقت، ثم أوصاها ودعا لها، وخرج.

وقالَ لأبيها: نعمتِ الابنةُ ابنتك، ثم انصرف.

ورُويَ أنَّ رجلًا دخلَ على عثمان رضي الله عنه وقد نظرَ امرأة أجنبيَّة، فلمَّا نظرَ إليه قال:

هاء!! أيدخلُ عليَّ أحدُكم وفي عينَيه أثرُ الزِّنا؟! فقال له الرجل: أوحيٌ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! قال: لا، ولكن قولُ حق، وفِرَاسة صدق؛ خرَّجَهُ المَلَّاءُ في "سيرته"(١).

قال العلَّامة ابن القيِّم في "الطُّرق الحُكميَّة" مبيِّنًا

---

(١) كتاب "الرِّياض النَّضِره، في مناقب العشَره" لأبي جعفر أحمد، الشهير بالمحبِّ الطَّبري (١/ ١٤٢-١٤٣).

شرعيَّة الحكم بالقِيافة:

وقد دلَّ عليها سنَّة رسول الله ﷺ، وعملُ خلفائه الراشدين، والصِّحابةِ من بعدهم؛ منهم: عمر بن الخطَّاب، وعليُّ بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري، وابن عبَّاس، وأنس بن مالك رضي الله عنهم جميعًا، ولا مخالفَ لهم في الصحابة.

وقال بها من التابعين: سعيد بن المسيّب، وعطاء بن أبي رَباح، والزُّهْري، وإياس بن معاوية، وقَتادة، وكعب ابن سَوَّار.

ومن تابعي التابعين: اللَّيث بن سعد، ومالك بن أنس، وأصحابه.

وممَّن بعدهم: الشافعيُّ وأصحابه، وإسحاق، وأبو ثَور، وأهل الظاهر كلُّهم.

وبالجملة فهو قول جمهور الأمَّة، وخالفَهم في ذلك أبو حنيفةَ وأصحابه، وقالوا: العمل بها تعويلٌ على مجرَّد الشَّبَه، وقد يقع بين الأجانب، وينتفي بين الأقارب.

وقد دلَّت على اعتبارها سنَّة رسول الله ﷺ؛ قالت

عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «دخلَ عليَّ رسول الله ﷺ، وهو مسرورٌ تبرُقُ أساريرُ وجهه، فقال: أي عائشة، ألم تَرَي أنَّ مُجَزِّزًا المُدْلِجيَّ دخلَ فرأى أسامة وزيدًا، وعليهما قَطِيفةٌ قد غَطَّيا رؤوسهما وبدَت أقدامُهما، فقال: إنَّ هذه الأقدام بعضُها من بعض؟!».

وفي لفظ: دخلَ قَائفٌ والنبيُّ ﷺ ساجد، وأسامة بن زيد وزيد بن حارثة مُضطَجِعان، فقال: إنَّ هذه الأقدام بعضُها من بعض، فسُرَّ بذلك النبيُّ ﷺ، وأخبرَ به عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ متَّفق عليه.

وذلك يدلُّ على أنَّ إلحاق القافة يُفيد النَّسب؛ لسرور النبيِّ ﷺ، وهو لا يُسرُّ بباطل.

وقد ثبتَ في قصَّة العُرَنِيِّين أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ في طلبهم قافَة، فأُتيَ بهم؛ رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح.

وقد ذكرَ عبد الرزَّاق، عن مَعْمَر، عن الزُّهري؛ قال: أخبرني عُروة أنَّ عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعا القافَةَ في رجلَين اشتركا في الوقوع على امرأةٍ في طُهرٍ واحد، وادَّعيا ولدها، فألحقَته القافَةُ بأحدهما.

قال الزُّهري: أخذَ عمر بن الخطَّاب، ومَن بعده بنظر

القافَة في مثل هذا. وإسناده صحيح متَّصل؛ فقد لقيَ عُروة عمر، واعتمرَ معه[١].

وعن حمَّاد بن سَلَمَة، عن إياس بن معاوية؛ قال: لا تنظر إلى ما يعمل الفقيه؛ فإنَّه يصنع الأشياء يكرهها، ولكن سَله يُخبرك بالحق.

حدَّث خلَّاد بن يزيد، قال: كان لإياس صديقٌ قد وَطئ أمَةً له، فخرجَ في بعض حوائجه، فولدَت غلامًا، فشكَّ فيه الرجل، فلم يدَّعِه ولم يُنكِره، وكان على باب الرجل كُتَّاب، وكان الغلامُ يختلف إلى ذلك الكُتَّاب، فجاءَ إياسٌ يريد صديقه ذلك، فتصفَّحَ وجوه الغِلمان، ثم أقبلَ على ذلك الغلام، فقال له: يا ابنَ فلان، قُم إلى أبيك فأعلِمه أنِّي بالباب، فقال معلِّم الكُتَّاب لإياس: ومن أين علمتَ يا أبا واثِلَة أنَّه ابنُه؟! فقال: شَبَهُهُ فيه، فقام المعلِّم إلى الرجل، فأخبرَه خبر إياس والغلام، فخرجَ الرجل بنفسه فَرِحًا بما أخبرَه المعلِّم، فقال: نعم شَبَهُهُ فيك، وشَبَهُكَ فيه أَبيَنُ من ذلك، فادَّعى الرجلُ الغلامَ ونسبَه إلى نفسه[٢].

---

(١) "الطُّرق الحُكميَّة" (ص٢١٦ وما بعدها)، وقد بسطَ الكلام فيها.

روى إسحاق الموصلي، عن أبيه: أنَّ أمَّ إياس كانت جاريةً بُنانيَّة، فقال: أتَتني هذه القِيافةُ من قِبَل أمِّي؛ كانت تخبرني أنَّ إخوتها يَزْكَنون ويتفرَّسون، فلقيتُهم بمكَّةَ، فزَكِنتُهم وزَكِنُوني(٣).

قال إياس بن معاوية: لو جلستُ على باب واسِط، لم يمرَّ أحد إلَّا أخبرتكم بعمله وصناعته(٤).

وقال إسحاق بن سُوَيد العدويُّ لإياس: أخبرني عن رجلَين ... قال إياس: اسكُت؛ فإنِّي أعلمُ ما تريد أن تسألَني عنه، قال: قُل، قال: تريد أن تقول: أخبرني عن رجلَين بالمِصر مسلمَين صالحَين خَيِّرَين فاضلَين لا يتزاوَران، ولا يتلاطَفان، ولا يلتقِيان: الحسن وابن سيرين، قال: ما أردتُّ غيرَهما!(٥)

وقال بعضهم: اكترى إياس من الشام قاصدًا الحجَّ، فركبَ معه في المَحَارَة غَيْلان القَدَري، ولا يعرف أحدهما

(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٩).
(٣) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦١).
(٤) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٩).
(٥) "أخبار القضاة" (١/ ٣٧٠).

صاحبه، فمكثا ثلاثة أيَّام أحدهما لا يعرف الآخر، فلمَّا كان بعد ثلاثة تحدَّثا، فتعارَفا، وتعجَّب كلٌّ واحد منهما من اجتماعه مع صاحبه؛ لمُباينة ما بينهما في الاعتقاد في القَدَر، فقال له إياس: هؤلاء أهل الجنَّة يقولون حين يدخلون الجنَّة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ويقول أهل النار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وتقول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البَقَرَة: ٣٢]، ثم ذكرَ له من أشعار العرب، وأمثال العجم ما فيه إثبات القَدَر.

ثم اجتمعَ مرَّة أخرى إياسٌ وغَيْلانُ عند عمر بن عبد العزيز، فناظرَ بينهما، فقهرَه إياس، وما زالَ يحصُره في الكلام حتى اعترفَ غَيْلان بالعجز، وأظهرَ توبته، فدعا عليه عمر بن عبد العزيز إن كان كاذبًا، فاستجابَ الله منه، فأمكنَ من غَيْلان، فقُتلَ وصُلبَ بعد ذلك(١).

شكا رجل إلى قوم، فقال: إنِّي كنت ببلدٍ بعيد، فتركتُ به حَملًا، فوُلدَ لي غلام، وصارَ رجلًا، وبلغني أنَّه قد قَدِمَ، وليس يعرفني ولا أعرفه، فلست أدري كيف

---

(١) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٦).

أطلبه!

فقالوا له: إن كان لك عند أحد فرجٌ فعند إياس بن معاوية، فأتاه فأخبرَه قصَّته، فقال: الزَمنا ههنا، فَلَزِمَهُ أيَّامًا، فقعدَ في حلقَته في المسجد الجامع بالبصرة، فلمَّا كان ذات يوم التفَت إياس، فقال: الرجل ههنا؟ قيل: نعم، قال: قُم إلى هذا الذي دخلَ من باب المسجد؛ فإنَّه ابنك.

فقام، فالتقَيا في بعض المسجد، فتوافَقا يتساءلان، ثم اعتنَقا، وأقبَلا إلى الحَلْقة فجلسا، فقال إياس: هو ابنُك؟ فقال: نعم، فقال القوم: يا أبا واثِلَة، إنَّا لنتأمَّله فلا نرى فيه شبهَه، فقال: أجَل، ما أبعدَ شبهَه! قالوا: فكيف علمت أنَّه ابنُه؟! قال: هو أشبه الناس به طَلْعَةً؛ حين طلعَ ظننته هو حتى رأيتُه في الحَلْقة، فعلمتُ أنَّه شبهه بطَلْعَته[١].

ونظرَ إياس إلى جنازة رجل، فقال: صاحبكم حيٌّ، فوضعوا الجِنازة، فعَضَّ الرجل، فإذا هو حيٌّ، فردُّوه،

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٦-٣٦٧).

فسُئل عن ذلك، فقال: رأيت أصابع قدمَيه منتصبةً، والميِّت لا تنتصبُ أصابع قدمَيه.

روى حَمَّاد، عن أبيه؛ قال: أتى إياسًا دِهْقَانٌ يُنازع، فتكلَّم، فقالَ إياس: اسكت أخبرك ما تريد أن تقول! فسكتَ، فقال إياس: تريد أن تقول كذا وكذا، فقال الدِّهْقَان: لا تتكلَّم، وبدأ الدِّهْقَان فتكلَّم، فقال إياس: أخبرك ما تريد أن تقول؟ تريد أن تقول كذا وكذا، فلمَّا كانت الثالثة، قال له الدِّهْقَان بالفارسيَّة: أخبرني عنك؛ أقاضٍ أنت أم عَرَّاف؟![(١)]

ونظرَ إياس يومًا إلى رجل متأبِّط شيئًا، فقال: معه سكَّر، وقد وُلِدَ له غلام، فاتَّبعَه رجل، فسألَه، فوجدَه كما قال، قيل له: ومن أين علمت؟ قال: رأيته نشيطًا مَرِحًا، فقلت: وُلِدَ له غلام[(٢)].

ورأى جارية في المسجد على يدَيها طَبَقٌ مُغَطَّى بمنديل، فقال: في طَبَقِها جَراد، فكان كما قِيل، فقال: رأيتُه خفيفًا على يدَيها[(٣)].

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٥).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٥).

كان خالد بن عبد الله يستثقل إياس بن معاوية، ويمقُتُ ذكاءه، فلمَّا بنى قصره الذي أسفل واسِط على دِجلَة، خرجَ إليه، ومعه الناس، وقد فرغَ منه، وفرشَ صَحنَه بالآجُرِّ، فرأى في الفُرُشِ آجُرَّةً ناتئةً عن الفُرش، وعليها شبه الدَّسَم، فقال: لو كان إياس حاضرًا لقالَ في هذه الآجُرَّة! قالوا: فإنَّه حاضر، قال: فعليَّ به، فجاء، فقال له: ما بالُ هذه الآجُرَّة هكذا؟ قال: ينبغي أن يكونَ تحتَها حيَّة، قال: وكيف؟ قال: لأنَّه لم يكن يُعمَل لك مثلُ هذه، وهذا حادثٌ فيها، وليس في الهَوام ما يكون تحتَها فيرفعها أقوى من الحيَّة، وهذا الدَّسَم نَفخُها، فدعا خالد بفأس، وأعجلَهم به، ورجا ألَّا يكون كما قال، فقلعَها، فإذا تحتَها حيَّةٌ مُطَوِّقة[٤].

ومرَّ يومًا بمكانٍ، فقال: أسمع صوت كلبٍ غريب، فقيل له: كيف عرفتَ ذلك؟! قال: بخضوعِ صوته، وشدَّة نُباح غيره من الكلاب، فكشفوا عن ذلك، فإذا كلبٌ غريبٌ مربوط، والكلاب تنبَحه[٥].

---

(٣) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٥).
(٤) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٤)، وانظر: "وفَيات الأعيان" (١/ ٢٢٤).
(٥) "وفيات الأعيان" (١/ ٢٢٥)، و"الأذكياء" لابن الجوزي (ص٨١).

ونظرَ يومًا في صَدْعٍ في الأرض، فقال: في هذا الصَّدْعِ دابَّةٌ، فنظروا، فإذاً فيه دابةٌ، فسألوه عنه، فقال: إنَّ الأَرضَ لا تنصَدِع إلَّا عن دابَّة أو نبات(١).

تقدَّمَ إلى إياس رجلان، وهو على القضاء، وكان معهما غلام، فقال له: إنِّي أتأمَّل هذا الغلام منذ قعدتُّما، فأقول أحيانًا: إنَّه من أهل الأهواز، وأحيانًا أقول: من أهل إصْطَخْر، فقال: إنَّه وُلِدَ بهذه، ونشأ بهذه(٢).

وذكرَ الواسِطيُّون أنَّ سفيان بن حسين قال: كان إياس جالسًا، فنظرَ إلى رجل دخلَ المسجد، فقال: هذا الرجل من أهل البصرة، من ثقيف، قد أرسلَ حمامًا له، فذهبَ ولم يرجع إليه.

فقامَ رجلٌ، فسألَ ذلك الرجل، فأخبرَه عن نفسه بما قالَ إياس، فسُئلَ إياس، فقال: أمَّا معرفةُ البصريِّ فلا أُحمَد عليه، وأمَّا قولي: ثَقَفيٌّ، فإنَّ لثَقيفٍ هيئةً لا تخفى، وأمَّا قولي: فقدَ حمامًا له، فإنِّي رأيته يتصفَّح الحَمام لا

---

(١) "وفيات الأعيان" (١/ ٢٢٥)، و"كتاب الأذكياء" (ص٨١)، و"دائرة معارف القرن العشرين" (١/ ٧٩١).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٤).

يرى ناهضًا ولا طائرًا ولا ساقطًا إلَّا نظرَ إليه، فقلت: قد فَقَدَ حمامًا لنفسه(١).

وحدَّثَ الأصمعيُّ؛ قال: نظرَ إياس بن معاويةَ إلى رجل في المسجد الجامع، فقال: ينبغي أن يكونَ خيَّاطًا، وهو يخيط القَلانس، فكان كما قال، فقيل له: كيف عرفت؟ قال: رأيته يحرِّك رأسه كما يفعل الخيَّاط، ورأيته ينظر إلى رؤوس الرِّجال.

واستقبلَ إياس رجلًا بواسِط، فقال: خُذوه؛ فإنَّه لصٌّ سرق، الساعةَ يأتيكم من يطلبه، فأُخِذَ، فلم يجاوز حتى جاءَ قومٌ يطلبونه، فأخذوه، فسُئل عن ذلك، فقال: رأيتُه ينظر مُدلَّهًا(٢).

وروى الأصمعيُّ؛ قال: تقدَّمَ إلى إياس بن معاويةَ نفرٌ ليشهدوا، فقال لبعضهم: تقدَّم يا سَمَّاك، فقال: لستُ بسمَّاك أصلحك الله، قال: فما أنت؟ قال: أنا أبَّاب أبيع الماء في السمَّاكين(٣).

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٩).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٦).
(٣) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٦).

وقالَ إياس يومًا في زُقاق محارب لغلامه: اطلب لنا ماءً في دار محارب، فجاءه بماء في كُوز، فتوضَّأ، وقال: هذا الماء قاطر، فسألهم، فقالوا: نعم، كان تحت الحُبِّ، قالوا: كيف علمتَ؟ قال: بصفائه[١].

ومرَّ إياس من عند بيت، فسمعَ صوت امرأة، فقال: هذه امرأة حامل بصبيٍّ، فلمَّا ولدت بصبيٍّ سُئل: كيف عرفتَ ذلك؟ قال: سمعت صوتها، ونفسها معه؛ فعلمت أنَّها حامل، وفي صوتها صَحَلٌ؛ فعرفت أنَّه غلام.

ومرَّ يومًا ببعض المكاتب، فإذا صبيٌّ هناك، فقال: إن كنت أدري شيئًا فهذا الصبيُّ ابن تلك المرأة، فإذا هو ابنُها[٢].

وكان أصحاب إياس يجلسون عندَه يكتبون عنه الفِراسَة، فبينما هم حولَه جلوسٌ إذ نظرَ إلى رجل قد جاءَ فجلسَ على دَكَّةِ حانوت، وجعلَ كلَّما مرَّ أحد ينظر إليه، ثم قامَ فنظرَ في وجه رجل، ثم عاد، فقال لأصحابه: هذا فقيهُ كُتَّاب، قد أَبَقَ له غلام أعور، فهو يتطلَّبه.

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٦).
(٢) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٧٠).

فقاموا إلى ذلك الرجل، فسألوه، فوجدوه كما قال إياس، فقالوا لإياس: من أين عرفتَ ذلك؟!

فقال: لمَّا جلسَ على دَكَّة الحانوت؛ عرفت أنَّه ذو وِلاية، ثم نظرتُ فإذا هو لا يصلح إلَّا لفَقاهَة المكتَب، ثم جعلَ ينظر إلى كلِّ مَن مرَّ به، فعرفت أنَّه فقدَ غلامًا، ثم لمَّا قامَ فنظر إلى وجه ذلك الرجل من الجانب الآخر، عرفت أنَّ غلامه أعور(١).

ومرَّ إياس تحتَ ساباطٍ للمُغِيرَة بن المُخادِش، فسمِعَ صوت امرأة، فقال: هذه حامل بغلام، قالوا: كيف علمتَ؟! قال: سمعت صوتا مجلجلًا صافيًا، وهذه علامة حَمل الغلام(٢).

ورأى رجلًا، فقال: هذا يبيع الرُّمَّان، فقيل له: من أين علمتَ؟ قال: رأيت ظُفرَ إبهامه أطولَ من سائره، ورأسَها أخضر؛ فعلمت أنَّه يمتحِن بها الرُّمَّان(٣).

ورأى مَعْلَفًا، فقال: مَعْلَف بَعيرٍ أعور، قالوا: بِمَ

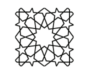
(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٢٨).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٢).
(٣) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦١).

علمتَ؟ قال: رأيت اعتماده في إحدى جَنبَيه[١].

طلبَ خالد بن عبد الله القَسْرِيُّ أموال ابن هُبَيْرَة، وقِيلَ له: إنَّ له ودائعَ عند قوم، فلم يجدوا له شيئًا، ولا أحدًا يدلُّهم على ودائعه، فأخذوا مولاةً له فسألوها، فلم يكن عندها علم، فرأوا أدوات راع في بيتها، فأخذوها، فوجدوا فيها خَيطًا فيه آثار كتاب، فدعا إياس بقَصَب، فجعلَ يُدرِج الخَيط عليها حتى أدرجَه على القَصَب، فنُبِشَ الكتاب، فإذا فيه ذكرُ أموال ابن هُبَيْرَةَ وودائعه عند أقوام سمَّاهم، فأخذَها[٢].



(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦١).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٢)، مع بعض التصرُّف.

من قضايا إياس بن معاوية 

حدَّث نُعَيم بن حَمَّاد، قال: حدَّثني عَرْعَرَة بن البِرِنْد، عن شيخ له سمَّاه، قال: كنت عند إياس بن معاويةَ إذ أتَتهُ امرأتان تختصمان في كُبَّةِ غَزْل، ليس معهما بيِّنة، فبعَّدَ واحدة، وقرَّبَ الأخرى، فقال لها: على أيِّ شيء كبَّبتِ غَزلَكِ؟ قالت: على كسرةِ خُبز، فنحَّاها، وقرَّبَ الأخرى، فقال: على أيِّ شيءٍ كبَّبتِ غَزلَكِ؟ قالت: خِرْقَة، فأمرَ بالكُبَّة فنُقِضَت، فإذا هي على كسرةِ خُبز.

قال: فأتيت محمَّد بن سِيرِين، فأخبرته، فقال: ويحًا له ما أفهمَه! ويحًا له ما أفهمه![1]

عن خالد، عن إياس بن معاويةَ أنَّه كان يقضي بالجوار - يعني في الشُّفْعَةِ - حتى جاءه كتابٌ من عمر بن عبد العزيز: لا يُقضى به إلَّا ما كان من شريكَين مختلفَين، أو دار يُغلَق عليها بابٌ واحد[2].

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٢)، ورُويَت هذه القِصَّة على أنَّها جرَت عند شُرَيح.
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٢).

وعن خالد الحَذَّاء، أنَّ إياس بن معاوية أجازَ شهادة عاصم الجَحْدَريِّ وحدَه، وأخذَ يمين الطالب، فقال الشُّهود: تُجيز على شهادة رجل؟! فقال: إنَّه عاصم! إنَّه عاصم![١]

وعن حَبيب بن الشَّهيد، أنَّ إياس بن معاوية واعدَه إلى دار خالد بن زيد، فوافَيتُه، فقامَ إليه شيخ، فقال: أصلحَ الله القاضي، إنَّ هذا ابني، وليس يُنفق عليَّ! فقال: ما صنعتُك؟ فقال: حائك، فحكمَ عليه بخمسة دراهم[٢].

قال حمَّاد: قال إياس: إذا وافقَت وصيَّة الصَّبيِّ والمجنون الحقَّ أجزنا وصيَّته[٣].

وأجازَ إياس شهادة رجل لابنه، وأخذَ يمينَ الطالب[٤].

وأجازَ شهادة قَتادَةَ - وهو أعمى - وقال: لولا معرفتُك به ما أجزتُ شهادتك، ولا تعُد[٥].

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣١).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٥).
(٣) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٤).
(٤) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٠).
(٥) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٠).

وقال إياس: إذا شاركَ المسلم النصرانيَّ أو اليهوديَّ، وكانت الدَّراهم مع المسلم هو الذي يتصرَّفُ بها بالشِّراء والبيع - فلا بأس، ولا يدفعها إلى اليهوديِّ أو النصرانيِّ يعملان بها؛ لأنَّهما يُربيان(١).

وشَهِدَ عندَه رجل في بستان، فقال له: كم عددُ أشجاره؟ فقال له: كم عددُ جُذوع هذا المجلس الذي أنت فيه من مدَّة سنين؟

«فقلت: لا أدري، وأقررت شهادته»(٢).

وعن أيُّوب، أنَّ إياس بن معاوية كان يقضي في سوق البصرة: هيَ مثلُ مسجد الجامع؛ مَن سبقَ إلى مكان فهو أحقُّ به ما جلسَ عليه، فإذا قامَ آخر، فجلسَ عليه، فهو أحقُّ به.

روى أبو سَلَمَة، قال عليٌّ: سألت إياس بن معاوية عن الرجل يَغشى أهلَه، ثم يقوم ليغتسل، ثم يبدو له أن يُجامعها قبل أن يغتسل، قال: لا بأس.

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٠).

(٢) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٧٠)، و"دائرة معارف القرن العشرين" (١/ ٧٩١).

وسألت إياسًا: ما تحقيقُ الوِتر؟ قال: تصلِّي ما بدا لك؛ ركعتين، ركعتين، فإذا بدا لك، فأوتِر بركعة.

وعن حَمَّاد بن سَلَمَة، قال: قال إياس: إذا شاركَ المسلم النصرانيَّ أو اليهوديَّ، وكانت الدَّراهم مع المسلم هو الذي يتصرَّف بها بالشِّراء والبيع - فلا بأس، ولا يدفَعْها إلى اليهوديِّ أو النَّصرانيِّ يعملان بها؛ لأنَّهما يُربيان.

وقال جميل بن عُبَيد الطائي: سُبِقنا يومَ جمعة بالصلاة (صلاة الجمعة)، ومعنا إياس بن معاوية - وهو يومئذٍ قاضٍ - فدخلنا المسجد واصطفَفنا، ونحن نفر، فتقدَّم إياس فصلَّى بنا أربعًا[1].

وقال محمَّد بن سلَّام، عن مسلَمَة بن مُحارب؛ قال: تقدَّمَ إلى إياس رجل من عَنَزَةَ أُعَيْمشُ تُخاصمه امرأة كالقلعة، ومعهم نفرٌ فيهم فتًى شابٌّ له منظر ورُواء، فأقبلَتِ المرأةُ تكلِّم الناس بلسانٍ سَلِيط، فقال إياس: أَجمِلي في مُنازعة بَعْلِك! فقالت: لو كان لذلك أهلًا

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٧١).

فعلت؛ ولكنَّه هِلْباجَةٌ (الأحمق الجامع لكلِّ شرٍّ) نَؤوم، لكلِّ معروفٍ عَدوم.

فقال بعلُها: أمَّا إذ أَبَت، فوالله لا أكتُم خبرَها، وأنشد:

نَبَتْ عَينُها عنِّي وَراقَ فُؤادَها
فتًى من بني جِلَّانَ رِخْوُ المَكاشِرِ
فتًى لو أُجارِيهِ إلى المَجدِ فُتُّهُ
وقَصَّرَ عن إدراكِ حُرِّ المآثِرِ
رَأتهُ جَميلًا ذا رُواءٍ فأذعنَت
إليهِ ورامَتني بإحدى القَناطِرِ
ودُونَ الذي رامَت منَ الموتِ عارضٌ
على رأسِها جَمٌّ كثيرُ الزَّماجِرِ

فرفعَ إياسٌ رأسه، فنظرَ في وجوه القوم، فقال للفتى: ما اسمُك؟ قال: رَوق بن عَمرو، قال: أجِلَّانيٌّ أنت؟ قال: نعم، قال: ادْنُ، فدنا منه، فأخذَ أُذنَه، وقال: واللهِ، لئن بلغني أنَّك دخلتَ بينهما لأُطيلنَّ حَبسَك.

فقال البَعْلُ له: أمَّا إذا أظهرت ما كنتُ أخفي؛ فهي طالق ثلاثًا، فقال له إياس: إنَّك لكريم، وقال للمرأة:

انهضي فغيرَ فَقيدةٍ ولا حَميدة، قبَّحك الله! وما تاقَت إليه نفسُك![١]



(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٧-٣٥٨).

ردُّ شهادة بلُطف

وقال أبو عبد الله بن الأعرابي: تقدَّمَ الفرزدقُ إلى إياس ليشهدَ هو وآخر، فقالَ إياس: أمَّا أبو فِراس؛ فقد عرفناه، ولكن زِدنا شهودًا.

فقال الفرزدقُ: ما أحسنَ ما سَلَلتَ عمَّك منها!

وفي رواية: فقامَ الفرزدق فَرِحًا، فقِيلَ له: إنَّه والله ما أجازَ شَهادتك، قال: بلى؛ قد سمعته يقول: قد قبلنا شَهادة أبي فِراس، قالوا: أفما سَمِعتَه يستزيد شاهدًا آخر؟ فقال: وما يمنعه ألَّا يقبلَ شهادتي، وقد قَذفتُ ألفَ مُحصَنة![1]

وذكر حَمَّاد بن إسحاق، عن أبيه؛ قال: أتى وكيعُ بن أبي سُود إياسًا ليشهد، فقال له: ما حاجتُك؟ قال: جئت لأشهد، قال: ما لك وللشَّهادة؟! إنَّما يشهد الموالي والتجَّار والسَّفِلَة، قال: صدقت، وانصرف، فقالوا لوكيع:

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٤)، و"الطُّرق الحكميَّة" (ص٢٨)، و"الأذكياء" (ص٨٦).

خَدَعَك! إنَّه لا يقبل شهادتك وردَّكَ، قال: لو علمت لعَلَوتُه بالقَضيب[١].

وقال مَطَر بن حُمْران: شهدتُّ إياسًا، وجيء بغلام قد سرقَ أَكْسِيَة الحمَّالين، فقامَت عليه بَيِّنة، فقال: اكشفوا عنه، فكشفوا، فلم يكن احتلم، فقال: لو كان احتلمَ لقطعته، اذهبوا به حيث سَرق؛ فسوِّدوا وجهَه، وعَلِّقوا في عُنقه العظام، واضربوه حتى يدمى ظهرُه، وطُوفوا به.

فجاءَ رجل يسعى، فقال: أصلحكَ الله، إنَّه مملوك لي، فإن فعلتَ ذاك به كسرت ثمنه! فقالَ إياس: يَعمِدُ أحدُكم إلى الغلام لم يحتلم، فيكلِّفه الضريبة، ولا يُحسن عملًا يعمله! فإنَّما يأمره أن يسرقَ ويطعمَه، ويَعمِدُ أحدكم إلى الجارية، فيقول لها: اذهبي فأدِّي الضريبة! فإنَّما يقول لها: اذهبي فازني وأطعميني![٢]

قال المَدائني: وأودعَ رجل كيسًا فيه دنانير، فغابَ خمسَ عشرةَ سنة، ثم رجع، وقد فتقَ المُودَعُ الكيسَ من أسفله، فأخذَ ما فيه، وجعلَ مكانه دراهم، والخاتَم على

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٣).

(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٢٩).

حاله، فنازعَه، فقالَ إياس: منذ كم أودعتَه؟ قال: من خمسَ عشرةَ سنة، قال المُودَع: صدق.

فأخرجَ الدَّراهم، فوجدَ فيها ما ضُرِبَ منذ عشر سنين، وخمس سنين، فقال للمُودَع: أقررتَ أنَّه أودعكَ منذ خمسَ عشرةَ سنة، وهذا ضَربٌ أحدثُ ممَّا ذكرت!

فأقرَّ له بوديعته، ودفعَها إليه(١).

قال إبراهيم بن مَرزُوق البصري: كنَّا عند إياس بن معاوية قبلَ أن يُستَقضَى، وكنَّا نكتب عنه الفِراسَة كما نكتب عن صاحب الحديث، إذ جاءَ رجلٌ فجلسَ على دُكَّان مرتفع بالمِربَد، فجعلَ يترصَّد الطريقَ، فبينا هو كذلك إذ نزلَ فاستقبلَ رجلًا، فنظرَ في وجهه، ثم رجعَ إلى موضعه، قال: فقال إياس بن معاوية: قُولوا في هذا الرجل؟

قالوا: ما نقول فيه؟! رجلٌ طالبُ حاجة.

قال: مُعَلِّم صبيان، قد أَبَقَ له غلامٌ أعور، فإن أردتُّم

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٢)، و"كتاب الأذكياء" لابن الجوزي (ص٨٢)، و"ثمرات الأوراق في المحاضرات" (١/ ١٤٥)، بهامش "المستطرف".

أن تستفهموه، فقوموا فسَلوه.

فقامَ إليه بعضنا، فسألَه، فقال: كان لي غلام نَسَّاج، وقد زاغَ منذ اليوم. فقالوا: صِف لنا غلامك، وصِف لنا موضعك.

فقال: أمَّا أنا فأعلِّم الصِّبيان بالكلأ، وأمَّا الغلامُ، فغلامٌ من صفته كذا وكذا، إحدى عينيه ذاهبة.

فرجعنا إليه، فقُلنا: هو كما قلت، ولكن كيف علمتَ أنَّه مُعَلِّم؟!

قال: رأيته جاءَ فجعلَ يطلب موضعًا يجلس فيه، فقلت: إنَّه يطلب عادَته في الجلوس، فنظرَ إلى أرفع شيء يقدر عليه، فجلسَ عليه، فنظرت في قَدره فإذا ليس قَدرُه قَدرَ الملوك، فنظرت فيمَن اعتادَ في جلوسه جلوس الملوك، فلم أجدهم إلَّا المعلِّمين، فعلمت أنَّه مُعَلِّم.

فقلنا له: كيف علمتَ أنَّه أَبَقَ له غلامٌ أعور؟!

قال: رأيته يترصَّد الطريق والمارَّة، فبينما هو كذلك إذ نزل، فاستقبلَ رجلًا مقبلًا، فعلمت أنَّه شبَّهَهُ بغلامه، فنظرَ في وجهه، فلو كان غلامه أعمى لعرفَه في ترجُّحه في

مِشيَته، فعلمت أنَّه نظرَ في وجهه إلى عينَيه، فعلمتُ أنَّ غلامه أعور، قد ذهبَت إحدى عينَيه[(١)].

وقال إبراهيم بن مَرزُوق: جاءَ رجلان إلى إياس بن معاوية يختصمان في قَطِيفَتَين، وهو قاضٍ، إحداهما حَمراء، والأخرى خَضراء، فقال أحدهما: دخلت الحوضَ لأغتسل، ووضعت قَطِيفَتي، وجاءَ هذا فوضعَ قَطِيفَته بجنب قَطِيفَتي، ثم دخلَ واغتسل، فخرجَ قبلي، فأخذَ قَطِيفَتي، فمضى بها، ثم خرجت، فاتَّبعته، فزعمَ أنَّها قطيفته!

فقال: ألكَ بَيِّنة؟

فقال: لا.

فقال: ائتوني بمُشط، فأُتي بمُشط، فسرَّح رأس هذا ورأس هذا، فخرجَ من رأس أحدهما صوفٌ أحمر، وخرجَ من رأس الآخر صوفٌ أخضر، فقضى بالحمراء للذي خرجَ من رأسه صوفٌ أحمر، وبالخضراء للذي خرجَ من رأسه صوفٌ أخضر[(٢)].

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٢٨-٣٢٩)، و"الطرق الحُكميَّة" (ص٣٣-٣٤).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٨-٣٣٩)، و"الطرق الحُكميَّة" (ص٣٢).

وقالَ عبد الله بن عمرو: حدَّثني حسين بن فِراس، عن صالح بن محمَّد، قال: دخلَ رجلان الحَمَّام، وأحدهما عليه مِطْرَف خَزٍّ، والآخر عليه بَتٌّ، فخرج صاحب البَتِّ، فلبِسَ المِطرَف، فتعلَّق به صاحبه، فسارا إلى إياس، فقالَ إياس لصاحب البَتِّ: ادنُه، فدنا، فنظرَ إلى شعر رأسه، فإذا هو قائم، ونظر إلى شعر الآخر، فإذا هو ساكن، فقالَ لصاحب البَتِّ: ادفَع المِطْرَف إليه، وخُذ البَتَّ[1].

وتراءى هلالَ شهر رمضان جماعةٌ فيهم أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد قاربَ المئة، فقال أنس: قد رأيتُه، هو ذاك، وجعلَ يشير إليه، فلا يرونه، ونظرَ إياس إلى أنس، وإذا شعرةٌ من حاجبه قد انثنَت، فمسَحَها إياس، وسوَّاها بحاجبه، ثم قالَ له: يا أبا حمزة، أرِنا موضع الهلال، فجعلَ ينظر ويقول: ما أراه[2].

وعن محمَّد بن عبد الرحمن القُرشي، قال: قُلت لإياس بن معاوية: أُخبرت أنَّك كنت لا تُجيز شهادة

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٢).
(٢) "وفَيات الأعيان" (١/ ٢٢٦).

الأشراف بالعراق، ولا التجَّار، ولا الذين يركبون البحر!

فقال: أجل؛ أمَّا الذين يركبون البحر، فإنَّهم يركبون إلى الهند حتى يُغَرَّر بدينهم، ويمكِّنوا عدوَّهم منهم من أجل طمع الدُّنيا، فعرفتُ أنَّ هؤلاء إن أُعطيَ أحدهم درهمَين في شهادتهم لم يتحرَّج بعد تغريره بدينه.

وأمَّا الذين يتَّجِرون في قُرى فارس، فإنَّ المجوس يطعمونهم الرِّبا، وهم يعلمون، فأَبيت أُجيز شهادتهم؛ لأجل الرِّبا.

وأمَّا الأشراف، فإنَّ الشريفَ بالعراق إذا نابَت أحدًا منهم نائبةٌ أتى سيِّدُ قومه فشَهِدَ له وشَفَع، فقد كنتُ أرسلت إلى عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ألَّا يأتيَني بشهادة[1].

قال المَدائِني: عن عبد الله بن مُصعب، أنَّ معاوية بن قُرَّة شَهِدَ عند ابنه إياس مع رجال عدَّهم، على رجلٍ بأربعة آلاف درهم، فقال المشهود عليه: يا أبا واثِلة تثبَّت في أمري؛ فواللهِ ما أشهدتُّهم إلَّا بألفين!

فسألَ إياسٌ أباه والشهود: أكان في الصَّحيفة التي

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٩).

شَهِدوا فيها فَضْلٌ؟ قالوا: نعم؛ كان الكتاب في أوَّلها والطِّينة في وسَطها وباقي الصحيفة أبيض، قال: أفكانَ هذا المشهود له يلقاكم أحيانًا، فيذكِّركم شهادتكم بأربعة آلاف؟ قالوا: نعم؛ كان لا يزال يلقانا، فيقول: اذكروا شهادتكم على فلان بأربعة آلاف درهم.

فصرفَهم، ثم دعا المشهود له، فقال: يا عدوَّ الله تغفَّلت أقوامًا صالحين مغفَّلين، فأشهدتَّهم على صحيفة جعلتَ طِينتها في وسَطها، وتركتَ فيها بياضًا في أسفلها، فلمَّا ختموا الطِّينة، قطعتَ الكتاب الذي جُعِلَ فيه ألفان، وكتبتَ في البياض أربعة آلاف!

فأقرَّ بذلك، وسألَه السَّترَ عليه، فحكمَ له بألفين، وسترَ عليه(١).

وعن خلَّاد بن يزيد وغيره: أنَّ إياس بن معاوية أتى المسجد، فصلَّى في مسجد النبيِّ ﷺ، ثم لَبِثَ في مَقعَده، فنظرَ إليه الحَلْقةُ، فَزَكَنوه حتى صاروا فرقتَين: فِرقةٌ تزعم أنَّه مُعلِّم، وفرقةٌ تزعم أنَّه قاضٍ، فوجَّهوا إليه رجلًا،

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٩-٣٧٠)، و"الطُّرق الحُكميَّة" (ص٣٣).

فجلسَ إليه يحادثه شيئًا، ثم أخبرَه خبر القوم، وما صاروا إليه من الظنِّ به.

فقال: قد أصابَ الذين ذكروا أنَّني قاض، ورويدًا أُخبِركَ عن القوم؛ أمَّا الذي من صفته كذا، فهو كذا، وأمَّا الذي يليه، فهو كذا، فلم يُخطئ في واحد منهم إلَّا شيخًا، فإنَّه قال: وأمَّا ذلك الشيخ، فإنَّه نجَّار، قالوا: فقالَ له الرجل: في كلِّهم - والله - أصبتَ إلَّا في هذا الشيخ؛ فإنَّه شيخٌ من قريش.

فقالَ إياس: وإن كان من قريش، فإنَّه نجَّار.

فقامَ الرجل إلى أصحابه، فقال: جئتكم - واللهِ - من عند أعجب الناس؛ لا - والله - إنْ منكم واحدٌ إلَّا أخبرني من صناعته فأصاب، إلَّا فيكَ يا أبا فلان، فإنَّه زعمَ أنَّك نجَّار، فأخبرته أنَّك من قريش، فقال: وإن كان من قريش، فإنَّه نجَّار!

قال: صدق - واللهِ - إنِّي أنا أعمل عِيدانَ جَواريَّ.

قال النُّميري: فحدَّثت به عبدَ الملك بن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سَلَمَة الماجِشُون، فقال: أخلِقْ بهذا

الحديث أن يكون كان بمكَّةَ؛ لأنَّهم أهل قِيافة! فأمَّا أهل المدينة فلا أعلم، ولكن يوسف بن الماجِشُون - خالي - حدَّثني أنَّ إياسًا قَدِمَ المدينة، فعمِلَ عبد الرحمن بن القاسم بن محمَّد طعامًا، ونزَّههم بالعَقِيق، ودعا إياسًا، وكان للماجِشُون لونان يُعملان في منزله، فيُجاد صَنعتُهما، فعُمِلا، ووُجِّهَ بهما إلى العَقيق، فقُدِّما في أضعاف طعام عبد الرحمن، والماجِشُون لا يعلم، ولا عبدُ الرحمن بن القاسم.

فقال إياس: ينبغي لهذا اللَّونين ألَّا يكونا عُمِلا ههنا، وينبغي أن يكونا عُمِلا في منزل الماجِشُون، فقال عبد الرحمن: لا علمَ لي! وقال الماجِشُون: لا علمَ لي!

قال يوسف: فسألني أبي، فقلت: صدق؛ في منزلنا عُملا.

فقِيلَ لإياس: ومن أين علمت؟

قال: جِيء بهما على غير مقادير سائر الطعام في حرِّه وبردِه، ورأيت الماجِشُون نظرَ إلى وجه ابنه حين وُضِعَ اللَّونان[1].

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٧-٣٦٨).

قال ابن كثير في "البداية والنِّهاية"(١): وقال سفيان ابن حسين: ذكرتُ رجلًا بسوء عند إياس بن معاوية، فنظرَ في وجهي، وقال: أغزوتَ الرُّوم؟ قلت: لا، قال: السِّند والهند والتُّرك؟ قلت: لا، قال: أفسَلِمَ منك الرُّومُ والسِّندُ والهندُ والتُّرك، ولم يسلَم منك أخوك المسلم؟!

قال: فلم أعُد بعدَها.

وفي "البداية والنِّهاية"(٢): قال بعض الناس لإياس ابن معاوية: ليس فيكَ عيبٌ سوى كَثرةِ كلامك، فقال: بحقٍّ أتكلَّم أم بباطل؟ فقيل: بحقٍّ، فقال: كلَّما كَثُرَ الحقُّ فهو خير.

ولامَه بعضهم في لباسه الثِّيابَ الغليظة، فقال: إنَّما ألبَس ثوبًا يخدُمني، ولا ألبَس ثوبًا أخدُمه(٣).

وقالَ إياس بن معاوية: ما خاصمت أحدًا من أهل الأهواء بعقلي كلِّه إلَّا القَدَريَّة؛ قلت لهم: أخبروني عن الظلم، ما هو؟ قالوا: أخذُ الإنسان ما ليس له، قلت:

---

(١) (٩/ ٣٣٦).
(٢) (٩/ ٣٣٦).
(٣) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٦).

فإنَّ الله له كلُّ شيء[١].

وقال إياس: كنت في الكُتَّاب وأنا صبيٌّ، فجعلَ أولاد النصارى يضحكون من المسلمين، ويقولون: إنَّهم يزعمون أنَّه لا فَضلَةَ لطعام أهل الجنَّة!

فقلت للفقيه -وكان نصرانيًّا-: ألستَ تزعم أنَّ في الطَّعام ما ينصرف في غذاء البدن؟ قال: بلى، قلت: فما يُنكَر أن يجعلَ الله طعام أهل الجنَّة كلَّه غذاءً لأبدانهم؟!

فقالَ له معلِّمه: ما أنتَ إلَّا شيطان![٢]

وتُروى على هذا النحو عن خالد الحَذَّاء؛ قال: قالَ إياس بن معاوية: إنَّ أوَّل شيءٍ حُكيَ عنِّي أنِّي كنت في مكتب رجل من أهل الذِّمَّة، فاجتمعَ إليه أصحابه، فقال: ألا تعجبون من أهل الإسلام أنَّهم يأكلون في الجنَّة ولا يتغوَّطون؟! فقلت: يا معلِّم، أليس الدُّنيا ضرَّةً للآخرة؟ قال: بلى، قال: كلُّ ما يأكلون في الدُّنيا يخرج غائطًا؟ قال: لا، قلت: فأين يذهب؟ قال: يذهب بعضُه غذاء،

(١) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٥)، "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٥)، و"حلية الأولياء" (٣/ ١٢٤).
(٢) "البداية والنِّهاية" (١/ ٣٣٥).

قلت: فما تُنكر إذا كان بعضه يذهب في الدُّنيا غذاء، أن يكون كلُّه في الجنَّة يذهب غذاء؟! قال: فألوى بيده، وقال: قاتلكَ الله من صبيٍّ![1]

وسألَ رجلٌ إياسًا عن النَّبيذ، فقال: هو حرام، فقال الرجل: فأخبرني عن الماء، فقال: هو حلال، قال: فاللَّوز، قال: حلال، قال: فالتَّمر، قال: حلال، قال: فما بالُه إن اجتمعَ حرُمَ؟!

فقالَ إياس: أرأيتَ لو رميتُكَ بهذه الحَفنة من التُّراب أتُوجِعُك؟ قال: لا، قال: فبهذه الحَفنة من التِّبن؟ قال: لا تُوجعني، قال: فهذه الغَرفة من الماء؟ قال: لا تُوجعني شيئًا، قال: أفرأيتَ إن خلطتُ هذا بهذا، وهذا بهذا، حتى صارَ طينًا، ثم تركته حتى استَحجَر، ثم رميتُكَ، أيُوجعك؟ قال: إي والله وتقتلني، قال: فكذلك تلك الأشياءُ إذا اجتمعت[2].

وقال رجلٌ لإياس: إنَّك لتُعجَب برأيك، فقال: لولا

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٧٣)، و"دائرة معارف القرن العشرين" (١/ ٧٩١).

(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٩)، و"البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٦).

ذلك لم أقضِ به![١]

وقالَ له رجل: إنَّ فيك خِصالًا لا تُعجبني، فقال: وما هي؟ فقال: تحكم قبل أن تفهم، ولا تُجالس كلَّ أحد، وتلبَس الثِّياب الغليظة، فقال له: أيُّها أكثر: الثلاثة، أو الاثنان؟ قال: الثلاثة، فقال: ما أسرعَ ما فهمتَ وأجبتَ! فقال: أوَيجهلُ هذا أحد؟ فقال: وكذلك ما أحكمُ أنا به.

وأمَّا عدم مجالستي لكلِّ أحد، فلَأن أجلسَ مع من يعرف لي قدري، أحبُّ إليَّ من أن أجلسَ مع من لا يعرف لي قدري.

وأمَّا الثِّيابُ الغِلاظ، فأنا ألبَس منها ما يَقيني، لا ما أقِيه أنا[٢].

وتحاكمَ إليه اثنان، فادَّعى أحدهما أنَّه أودعَ الآخر مالًا، وجحدَ الآخر، فقالَ إياس للمُودِع: أين أودعتَه؟ فقال: عند شجرةٍ في البستان، فقال: انطلِق إليها، فقِف عندَها؛ لعلَّك تتذكَّر، وفي رواية أنَّه قالَ له: هل تستطيع

(١) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٦).
(٢) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٧).

أن تذهبَ إليها، فتأتيَ بورقٍ منها؟ قال: نعم.

فانطلقَ الرجل، وجلسَ الآخر، فجعلَ إياس يحكم بين الناس ويُلاحظه، ثم استدعاه، فقالَ له: أوَصَلَ صاحبك بعدُ إلى المكان؟ فقال: لا بعدُ، أصلحكَ الله.

فقالَ له: قُم يا عدوَّ الله فأدِّ إليه حقَّه، وإلَّا جعلتُكَ نَكالًا، وعادَ المودَع، فقامَ معه، ودفعَ إليه وديعتَه بكاملها[(١)].

وتحاكمَ إليه اثنان في جارية، فادَّعى المشتري أنَّها ضعيفة العقل، فقالَ لها إياس: أيُّ رجليكِ أطول؟ فقالت: هذه، فقال لها: أتذكرين ليلةَ ولدتِّ؟ فقالت: نعم، فقال للبائع: رُدَّ رُدَّ[(٢)].

قال أبو عُبيدة: تحاكمَ إياس بن معاوية - وهو صبيٌّ شابٌّ - وشيخ، إلى قاضي عبد الملك بن مروان بدمشق، فقالَ له القاضي: إنَّه شيخ، وأنت شابٌّ، فلا تُساوِهِ في الكلام.

---

(١) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٧)، و"كتاب الأذكياء" (ص٨٣)، و"ثمرات الأوراق" (١/ ١٤٥).
(٢) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٨).

فقالَ إياس: إن كان كبيرًا، فالحقُّ أكبر منه.

فقال له القاضي: اسكُت!

فقال: ومن يتكلَّم بحجَّتي إذا سكتُّ؟!

فقال القاضي: ما أحسبُكَ تنطِق بحقٍّ في مجلسي هذا حتى تقوم.

فقالَ إياس: أشهدُ أن لا إله إلَّا الله.

وزادَ غيره: فقالَ القاضي: ما أظنُّك إلَّا ظالمًا له.

فقال: ما على ظنِّ القاضي خرجت من منزلي.

فقامَ القاضي، فدخل على عبد الملك، فأخبرَه خبره، فقال: اقضِ حاجتَه، وأخرِجه الساعةَ من دمشق؛ لا يُفسد عليَّ الناس[١].

وقال العِجْليُّ: دخلَ على إياس ثلاثُ نِسوَة، فلمَّا رآهنَّ قال: أمَّا إحداهنَّ فمُرضِع، والأخرى بِكْر، والأخرى ثَيِّب.

---

(١) "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٤)، و"البيان والتبيين" (١/ ١٢٥)، و"ثمرات الأوراق" (١/ ١٥٧)، بهامش "المستطرف"، وفي آخر القصَّة: فبلغَ ذلك الخليفة، فعزلَ القاضيَ وولَّى إياسًا مكانَه.

فقيلَ له: بِمَ علمتَ هذا؟!

قال: أمَّا المُرضِع، فكلَّما قعدَت أمسكَت ثديَها بيدها، وأمَّا البِكرُ، فكلَّما دخلَت لم تلتفِت إلى أحد، وأمَّا الثَّيِّب، فكلَّما دخلَت نظرَت، ورمَت بعينَيها[١].

ورُوي عن إياس أنَّه قال: ما غلبَني أحدٌ قطُّ، سوى رجل واحد؛ وذلك أنِّي كنت في مجلس القضاء بالبصرة، فدخلَ عليَّ رجل شَهِدَ عندي أنَّ البستان الفلانيَّ - وذكرَ حدوده - هو مِلك فلان، فقلت له: كم عددُ شجره؟ فسكت، ثم قال: منذ كم يحكم سيِّدنا القاضي في هذا المجلس؟ فقلت: منذ كذا، فقال: كم عدد خشبِ سَقْفِه؟ فقلت له: الحقُّ معك، وأجزتُ شهادته[٢].

وكان يومًا في بَرِّيَّة، فأعوزَهم الماء، فسمِعَ نُباح كلب، فقال: هذا على رأس بئر، فاستَقرَوا النُّباح، فوجدوه كما قال، فقِيلَ له في ذلك، فقال: لأنِّي سمعتُ الصَّوت كالذي يخرج من بئر.

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٧١)، و"البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٥)، و"وفَيات الأعيان" (١/ ٢٢٤)، و"كتاب الأذكياء" (ص٨٠).
(٢) "وفيات الأعيان" (١/ ٢٢٥-٢٢٦).

وكان له في ذلك غرائب[١].

قال الجاحظُ: وحجَّ إياس، فسمِعَ نُباح كلب، فقال: هذا كلبٌ مشدود، ثم سمعَ نُباحه، فقال: قد أُرسل.

فانتهَوا إلى الماء، فسألوهم، فكان كما قال، فقِيلَ له: من أين علمتَ؟! قال: كان نُباحه وهو موثوق يُسمع من مكانٍ واحد، ثم سمعته يقرُب مرَّة ويبعُد مرَّة أخرى[٢].

استودعَ رجلٌ رجلًا مالًا، وخرجَ المودِع إلى مكَّة، فلمَّا رجعَ طلبَه، فجحدَه، فأتى إياسًا، فأخبرَه، فقالَ له إياس: أَعلِمَ أنَّك أتيتَني؟ قال: لا، قال: فنازعتَه عند أحد؟ قال: لا، لم يعلم أحدٌ بهذا، قال: فانصرِف واكتُم أمرك، ثم عُد إليَّ بعد يومين.

فمضى الرجل، فدعا إياسٌ أمينَه ذلك، فقال: قد حضرَ مالٌ كثيرٌ أُريد أن أسلِّمه إليك، أفحصينٌ مَنزلُك؟ قال: نعم، قال: فأعِدَّ موضعًا للمال وقومًا يحملونه، وعادَ الرجل إلى إياس، فقالَ له: انطلِق إلى صاحبك،

(١) "وفيات الأعيان" (١/ ٢٢٥-٢٢٦).
(٢) "كتاب الأذكياء" (ص٨١).

فاطلُب المال؛ فإن أعطاكَ فذاك، وإن جحدكَ فقُل له: إنِّي أُخبر القاضي.

فأتى الرجل صاحبَه، فقالَ له: مالي وإلَّا أتيتُ القاضيَ وشكوتُ إليه وأخبرته ما جرى، فدفعَ إليه ماله، فرجعَ الرجل إلى إياس، فقال: قد أعطاني المال!

وجاءَ الأمينُ إلى إياس، فزجرَه ونَهَرَه، وقال: لا تقربنِّي يا خائن! ونادى مناديَه: ألا إنَّ فلان بن فلان القاضيَ قد أسقطَ فلان بن فلان الشاهد، فاعلموا بذلك، ولا يغترنَّ به أحدٌ بعد اليوم، فباعَ الشاهد أملاكه بواسِط، وخرجَ عنها هاربًا، فلم يُعلم له خبر، ولا أُحسَّ منه أَثَر[(١)].

قال عُتْبَة بن عمر: ما رأيتُ عقول الناس إلَّا قريبًا بعضُها إلى بعض، إلَّا الحجَّاج، وإياسَ بن معاوية؛ فإنَّ عقولَهما كانت ترجَحُ على عقول الناس[(٢)].

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٧١-٣٧٢)، و"البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٧)، و"ثمرات الأوراق" (١/ ١٤٤)، بهامش "المستطرف"، و"كتاب الأذكياء" لابن الجوزي (ص٨٠-٨١).

(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٦).

وعن أيُّوب، قال: ما رأينا قاضيًا يُشبه إياسَ بن معاوية[١].



(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣١٧).



بين الحسن وابن سِيرين

بين الحسن وإياس:

الحسن بن أبي الحسن البصري، فقيهٌ وَرِعٌ، له مكانةٌ مرموقةٌ بين العلماء، وذوي السُّلطان، وهو معاصرٌ لإياس ابن معاوية، وله معه مواقفُ مختلفة، ومع كلِّ تلك المواقف فإنَّه يبدو أنَّ كلًّا من الرجلين العالمين يحترم الآخر، ولا يخرج في خلافه معه إلى حدٍّ يقطع عُرى الودِّ، أو يزيل أَواصِر الصَّداقة.

فقد طَلَبَ أن يُستشار الحسن وابن سِيرين، واصفًا إيَّاهما بالعلم والصلاح؛ وذلك حتى يتخلَّصَ من القضاء.

ويُصدر الحسنُ حكمًا لا يرضيه في ماله، فيترحَّم عليه، ويدعو له، ولا يحمل حقدًا ولا ضَغِينةً عليه.

وإذا كان الحسن ليس بمنزلة إياس فِطْنَةً وذكاءً وفقهًا، وإياس يرى هذا الرأي، ويجهر به أحيانًا؛ فإنَّه لم يحمله على معاداته أو الطعن فيه، ولكنَّه كان ينظر إليه نظرته إلى عالم عامل، فيه صفات خيِّرة تستحقُّ التقدير والتَّبجيل،

أمَّا رأيه فقد يصيب وقد يخطئ، وهو ليس مُكلَّفًا بتقليده، ولا يجوز له اتِّباعه فيما يعلمه غيرَ صواب.

وها نحن نعرض شيئًا يبيِّن العَلاقة بين الحسن وإياس.

قال حُميد: إنَّ إياس بن معاوية لمَّا استُقضِيَ أتاه الحسن، فبكى إياس، فقال له الحسن: ما يُبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أنَّ القضاةَ ثلاثةٌ: رجل اجتهدَ فأخطأَ؛ فهوَ في النَّار، ورجلٌ مالَ به الهوى؛ فهوَ في النَّار، ورجلٌ اجتهدَ فأصاب؛ فهو في الجنَّة!

قال الحسنُ: إنَّ فيما قصَّ الله من نبأ داودَ وسليمانَ عليهما السلام ما يردُّ قول هؤلاء؛ يقول الله - عزَّ من قائل -: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨] إلى قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩]؛ فأثنى الله على سليمان، ولم يذُمَّ داود.

ثم قالَ الحسن: إنَّ الله عز وجل أخذَ على العلماء ثلاثًا: لا يشترون به ثمنًا قليلًا، ولا يتَّبعون فيه الهوى، ولا يخشَون فيه أحدًا؛ وقرأ هذه الآية: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾ [المائدة: ٤٣]، إلى قوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا

قَلِيلًاۚ﴾ [المَائدة: ٤٤]. [1]

وروى حُصَين بن كَرَّار المالكي؛ قال: كنت عند إياس بن معاوية، فجاءت امرأتان، فقالت إحداهما: ألا تعجَبون؟ أختي لأبي وأمِّي تزعم أنَّها أحقُّ بميراث أبي منِّي؟!

قال إياس: ما أراها إلَّا صادقة!

فقالت الأخرى: إنِّي اشتريتُ أبي وأعتقتُه.

فقال إياس: الثُّلثان بينكما بالميراث، ولهذه الثُّلث بالولاء.

فأتيتُ الحسنَ فأخبرته، فقال: لا؛ حقُّ الوالد أعظم من أن يكونَ ولاء!

فأتيتُ إياسًا فأخبرته بقول الحسن، فقال: إذا جاءَ الحسن فقُل له: يلزَم سَاريةً من السَّواري؛ فنحن أعلمُ بالحكم منك[2].

روى أيُّوب؛ قال: أخبرني إياس بن معاوية أنَّ عَدِيَّ

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣١٣).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٨).

ابن أَرْطَاةَ أرسلَ إليه وإلى الحسن، فسألَهما عن رجل كاتَبَ عبدَه، واشترطَ عليه: أنَّ لي سهمًا من مالك إذا مِتَّ؟ قال: فقلت: جائز، وقال الحسن: ليس بشيء، قال مَعْمَر: قال أيُّوب: وأقرأني إياس الكتاب[١].

قال قَتادة: إنَّ إياس بن معاوية أجازَ شهادة رجل وامرأتين في طلاق، قال قَتادة: فسألت الحسن، فقال: لا يجوز شهادة النِّساء في الطَّلاق.

وقال: كتب عَدِيُّ بن أَرْطَاةَ إلى عمر بن عبد العزيز بقول الحسن، وبقضاء إياس، فكتب عمر إلى عَدِيٍّ بن أَرْطَاة: أصابَ الحسن، وأخطأ إياس[٢].

قِيلَ لإياس بن معاوية: من أعلمُ أهل مَكَّة؟ قال: أسوأهم خُلقًا: عَمرو بن دينار.

حدَّثَ المُعتَمِر بن سُليمان، قال: حدَّثني أبي، قال: كان إياس بن معاوية يرى التَّوَرُّقَ - والتَّوَرُّقُ: أن يحتاجَ الرجل إلى مئة درهم، فيجيءَ إلى السُّوق، فيشتريَ متاعًا بعشرين ومئة درهم، فيبيعَه بمئة درهم، فينصرفَ إلى أهله

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٢٧).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٠).

وليس معه إلَّا المئة - قال: إنِّي أوَّل ما فَرِقتُ من العِينَةِ أنِّي سمعتُ أعرابيًّا يقول: انظر كم تجدها ربًا على هذا الشهر؟

قلتُ لأبي: وقد قالَ الفرزدق فيه، قال: وما قال؟

قلت: قال:

فَكَيفَ بِعامِلٍ يَسْعى علَينا
يُكَلِّفُنا الدَّراهمَ في البُدُورِ

إذا سُقنا الفَرائضَ لم يُرِدْها
وصَدَّ عنِ الشُّوَيهَةِ والبَعيرِ

إذا وَضَعَ السِّياطَ لنا نهارًا
أخَذْنا بالرِّبا سَرَقَ الحَريرِ

فأَولَجْنا جهنَّمَ ما أخَذْنا
منَ الإرباءِ من دونِ الظُّهورِ

قال: يا بنيَّ، وهذا ما يكرِّهه إليَّ.

وقال حُمَيد الطَّويل: إنَّ معاوية بن قُرَّة أخذَ جاريةً لابنه، فقالَ له إياس: تأخذُ جاريتي؟! فحكَّما الحسن، فقالَ الحسنُ لمعاوية: خُذها؛ «أنت ومالُكَ لأبيك»، فقالَ

للحسن إياسٌ: أنت شيخٌ قد خَرِفْتَ؛ يأخذ جاريتي؟![١]

وجاء رجلٌ إلى الحسن، فقال: يا أبا سعيد، إنَّ إياسًا ردَّ شهادتي، فانطلقَ الحسن معه، فلَقِيَ إياسًا، فقال: ما حملكَ على ردِّ شهادة هذا؟ أمَا بلغك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «منِ استقبلَ قبلتَنا، وأكلَ ذبيحتنا - فذلك المسلم؛ له ذمَّة الله وذمَّة رسوله»؟! فقالَ له الآخر: أيُّها الشيخ، إنَّ الله يقول: ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وإنَّ صاحبك ليس ممَّن يُرضى من الشُّهداء[٢].

وعن حُميد، قال: لمَّا أخذَ الحجَّاج بن يوسف إياس ابن معاوية، فسجنَه، قال: سَلِ الحسن؛ هل لي أن أُعطيَ من مالي شيئًا؟

قال حُميد: فسألتُ الحسن، فقال: ليس له من ماله إلَّا الثلث، فأخبرته بذلك، فقال: رحمَ الله أبا سعيد؛ ما فَقُهَ رجلٌ قطُّ إلَّا ساءَ ظنُّه بالناس![٣]

حدَّث حَبيب بن الشَّهيد، قال: قال إياس بن معاوية:

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٧).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٣٧).
(٣) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٩-٣٦٠).

لست بِخِبٍّ، والخِبُّ لا يَخدَعُني، ولا يخدعُ ابنَ سيرين، ويخدعُ الحسن، ويخدعُ أبي معاويةَ بن قُرَّة، ويخدعُ عمر ابن عبد العزيز[1].



(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٨).

كثيرُ الكلام

نعتَ غيرُ واحد إياسًا بكثرةِ الكلام، وهو نفسه قد اعتبرَ كثرةَ الكلام عيبًا فيه.

قال ابن شُبْرُمَة: وقالَ إياس بن معاوية: إنِّي لأعرفُ عَيبي؛ ما عَيبي إلَّا كثرةُ الكلام(١).

وعن داودَ بن أبي هند، قالَ إياس بن معاوية: لا خيرَ فيمَن لا يعرف عَيبَ نفسه، قِيلَ له: فما عَيبُك؟ قال: كَثْرة الكلام(٢).

وقال الأعْمَشُ: جاءَ إياس بن معاوية، فأتيناه، فإذا ما يفرُغ من حديثٍ إلَّا أخذ بذَنَب آخر(٣).

ومع اعتراف إياسٍ بكثرة الكلام، واعتباره ذلك عيبًا له - فإنَّه عَيبٌ له ما يبرِّرُه:

قالَ عبد القاهر بن السَّرِيِّ: قالَ إياس بن معاوية: ما

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٦).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٦)، وانظر: "البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٨)، و"حلية الأولياء" (٣/ ١٢٤) و"الطبقات" لابن سعد (٧/ ٢٣٤).
(٣) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٦).

من رجل عاقل إلَّا وهو يعرف عَيبَ نفسِه، قيل له: فما عيبُكَ يا أبا واثِلَة؟ قال: الإكثار، ثم قال: أما والله، مع ذاك، ما تَدَبَّر رجلٌ عاقلٌ قولي إلَّا وجدَ فيه بعضَ ما ينفعُه[١].

وعن عامر بن صالح، عن إياس بن معاوية قال: أرسلَ إليَّ ابنُ هُبَيرَة، فساكتَني وساكتُّه، حتى فَهِمتُ، ثم أعادَني من القابلة، ففعلَ مِثلًا، ثم قال: إيهٍ!

قلت: سَلْ عمَّا شِئت.

قال: أتقرأ القرآن؟

قلت: نعم.

قال: أتعرفُ من الشِّعر شيئًا؟

قلت: نعم.

قال: هل تعلم من أيَّام العَجَم شيئًا؟

قلت: أنا بذاك أعلمُ.

قال: إنِّي أريد أن أستعينَ بك.

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٧).

قال: قلت: فيَّ ثلاثٌ لا أصلح معهنَّ لوِلاية؛ أنا دَميم، وأنا عَيِيٌّ، وأنا سيئ الخلق.

قال: أمَّا دَميم، فإنِّي لا أُحاسنُ بك الناس، وأمَّا عَيِيٌّ، فإنَّك تعبِّر عن نفسك، وأمَّا سيئ الخلق، فالسَّوط يقوِّمُكَ.

وأمرَ لي بألفَي درهم؛ فهو أوَّل مال تأثَّلتُه(١).

عن عثمان: حدَّثني أبي قال: سمعت إياس بن معاوية، ورأيته رجلًا أحمر غليظ الثَّوب يَلُوث عمامتَه لَوْثًا، وقد غلبَهم على الحديث، قال: فسمعته يقول: يكون على الرجل ألف، فيُنفِق ألفَه؛ فيَصلُح وتَصلُح الغَلَّة، ويكون على الرجل ألفان، فيُنفق ألفَين؛ فيَصلُح وتَصلُح الغَلَّة، ويكون على الرجل ألف، فيُنفق ألفَين؛ فيوشك أن يبيعَ العَقار، وتذهبَ النَّفَقة(٢).

عن نوح؛ قال: قِيلَ لإياس بن معاوية: فيكَ أربع خصال: دَمامة، وكثرةُ كلام، وإعجابٌ بنفسك، وتعجيلُكَ بالقضاء!

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥١-٣٥٢)، و"البيان والتبيين" (١/ ١٢٣).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٥).

قال: أمَّا الدَّمامة، فالأمرُ فيها إلى غيري، وأمَّا كثرةُ الكلام، فبصوابٍ أتكلَّم أم بخطأ؟ قالوا: بصواب، قال: فالإكثار من الصواب أمثَل.

وإعجابي بنفسي، أفَيُعجبكم ما ترونَ منِّي؟ قالوا: نعم، قال: فإنِّي أحقُّ أن أُعجبَ بنفسي.

وأمَّا قولكم: إنَّك تعجَل بالقضاء فيكم، فكم هذه؟ وأشار بيده خمسة، فقالوا: خمسة، فقال: عجِلتُم؛ ألا قُلتم: واحدًا، واثنين، وثلاثة، وأربعة، وخمسة؟!

قالوا: ما نعُدُّ شيئًا قد عرفناه!

قال: فما أحبِس شيئًا قد تبيَّنَ لي فيه الحُكم[١].

وذكر ابن شُبْرُمة؛ قال: قالوا لإياس بن معاوية: إنَّك معجَبٌ برأيك، قال: لو لم أكُن معجبًا برأيي ما قضيتُ به[٢].

وقالَ محمَّد بن إسماعيل: قالَ رجل لإياس بن معاوية: إنَّك معجَبٌ، فسكتَ عنه إياسٌ قليلًا، ثم قالَ له:

---

(١) "حلية الأولياء" (٣/ ١٢٣).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٦)، و"البداية والنِّهاية" (٩/ ٣٣٧).

نشدتُّكَ الله، أيُعجِبكَ ما تسمع منِّي؟ قال: اللهمَّ نعم، قال: فكيف تلومني أُعجب بنفسي؟![1]

وصفةُ المَرَح باديةٌ في ثنايا كلامه، وقضاياه، وفِراسته، وها هو يُنَكِّتُ على نفسه بكثرةِ الكلام، وتكتمل صورة النُّكتَة حين يلتقي مع شخص يُشاركه هذه الصِّفة؛ فكلٌّ منهما يَوَدُّ أن يتفرَّدَ بالحديث دونَ صاحبه، وما الحلُّ، وكلٌّ منهما يفقِد صبره في هذه الحالة المستعصِيَة؟!

قعدَ إياس بن معاوية وخالد بن صَفوان مَقعَدًا، فقالَ إياس: يا أبا صَفوان، أنا وأنت ينبغي ألَّا نجتمع؛ أنت لا تريد أن تسكتَ، وأنا لا أُريد أن أسمع![2]



(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٧).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٤٧).



امتداحه للشَّيب

الشَّيبُ يزيد المسلم وَقارًا، وهو نذيرٌ بأنَّ الأجلَ قريب، وأنَّ مغادرة هذه الحياة باتَ وَشيكًا؛ فهو واعظٌ مُذكِّر، وهو في نفس الوقت مُنفِّرٌ للحِسان، مُزهِّدٌ للغَواني، وقد أكثرَ الشُّعراء من هَجوِه ونَعتِه بأقذع النُّعوت.

عن محمَّد بن سلَّام؛ قال: قالَ إياس بن معاوية: لَونُ الشَّعر الذي هو لَونُه: البَياض، وإنَّما السَّوادُ قبلَ إدراكه؛ كالثَّمرة قبلَ إدراكها[1].

ففي هذا القول نظريَّةٌ جديدة؛ إذ إنَّه لا يفسِّر الشَّيب على أنَّه مُدنٍ للفِراق، وعلامةٌ على الوداع، وإنَّما فسَّرَه على أنَّه عنوان الرجولة الكاملة، والنُّضج العقلي، واشتداد القوَّة.

وقال هُشَيم: رأيت إياس بن معاوية، وكان أبيضَ الرأس واللِّحية، لا يَخضِب.



(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٦٢).

هل هو بخيل؟

قدَّمنا بعض ما يدلُّ على سخائه وبذله، ممَّا يجعله في عِدادِ الكُرماء السُّمحاء؛ فقد ذكرَه والده معاوية بن قُرَّة بأنَّه يتصدَّقُ بألف الدِّرهم لا يُبالي بها.

وذكرَ أحد مُعاصريه أنَّه كان يستلف ويتصدَّق، ويوفِّي بعد خروج رزقه.

وغير هذا ممَّا يضعه بجانب ذوي الشَّهامة والنُّبل؛ بينما نجد كلماتٍ لبعض معاصريه وله أيضًا، قد تعكس الصورة؛ فعن المُعافى بن عِمران؛ قالَ إياس بن معاوية: وما خيرُ رجلٍ له قميصان؟![1]

وعن سعيد بن هارون، قال: قلت لإياس بن معاوية: يا أبا واثِلَة، ما لك لا تشتري دابَّة؟ أراكَ تستعير من الناس، قال: يا بنيَّ، وما أصنع بمالٍ يأكل المال؟![2]

وأتى حَلْقَةً من حِلَقِ قريش في مسجد دمشق، فاستولى

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٥).

(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٦).

على المجلس، ورأوه أحمرَ دميمًا، باذَّ الهيئة قَشِيفًا، فاستهانوا به، فلمَّا عرفوه؛ اعتذروا إليه، وقالوا له: الذَّنبُ مقسومٌ بيننا وبينك؛ أتيتَنا في زِيٍّ مسكين تُكلِّمنا بكلام الملوك![١]

وقالَ عبد الرحمن بن إسحاق القُرَشيُّ أبو شَيبةَ: كانت لإياس بن معاويةَ جاريةٌ، تقوم على طعامه وتذبَح له.

حدَّثَ عبد الله بن الحسن القاضي؛ قالَ إياس بن معاوية: الفقيهُ التَّاجر أفضلُ من الفقيه الذي ليس بتاجر.

قال: فكأنَّا أنكرنا ذلك لمَّا سمعناه، فلمَّا نظرنا في الأمور بعدُ، نظرنا فإذا الأمورُ كما قال الشيخ[٢].



(١) "البيان والتبيين" (١/ ١٢١-١٢٢).
(٢) "أخبار القضاة" (١/ ٣٥٠).

هربُه من القضاء

وروى مسلم بن زياد، مولى عمرو بن الأشرَف، قال: تزوَّجَ رجلٌ من بني فَرَّاص - كانت أخته تحتَ عَدِيٍّ بن أَرْطَاة - امرأةً من الحُدَّان، كانت عَقِيلةَ قومها، وكان يشرب فيطلِّقها، ثم يجحَد، فأتَت إياسًا، فذكرت ذلك له، وجاءت بشاهد، فسألَ إياسٌ عنه، فعُدِّل، ولم تأتِ بغيره، فأحلفَ إياس الفَرَّاصيَّ، فحلف.

فقالت المرأة: إنَّ لي مملوكًا يشهد، فهل تجوز شهادته؟

قال: لا.

قالت: فإن أعتقتُه؟

قال: إن كان عدلًا فأعتِقيه.

فسألَ إياسٌ عنه، فعُدِّل، فانتزعَها إياسٌ من الفَرَّاصيِّ، فوضعَها على يدِ عبد الرحمن بن البُكَيْر السُّلَميِّ.

فانتزعَها عَدِيٌّ، فردَّها على الباهليِّ، وكان عَدِيٌّ ناكحًا أختَهُ أمَّ عُباد بنت عَمَّار بن عطيَّة، فجاءَ إياس يومًا

يريد الدُّخول على عَدِيٍّ، وعندَه وكيع بن أبي سُود، وقد ائتمَرا به، وشجَّع وكيعٌ عَدِيًّا على الإقدام عليه، فلقِيَه داود ابن أبي هِند خارجًا من عند عَدِيٍّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القَصَص: ٢٠]!

فخرجَ إلى عمر بن عبد العزيز، فكتبَ عَدِيٌّ إلى عمر ابن عبد العزيز: إنَّ إياسًا هربَ إليك من أمرٍ لزِمَه، وإنِّي ولَّيتُ الحسن بن أبي الحسن القضاء، فكتبَ إليه عمر: الحسن أهلٌ لما ولَّيتَه، ولكن ما أنتَ والقضاء؟! فرِّق بينهما، فرَّقَ الله بين أعضائك!(١)

روى إسحاق بن إبراهيم الموصلي، عن أبيه؛ قال: كان سبب هرب إياس بن معاوية من القضاء، أنَّ أمَّ القاسم بن عبد الرحمن الهلالي هي فاطمة بنت أبي صُفْرَة، فتزوَّج المهلَّبُ بن القاسم بن عبد الرحمن أمَّ شُعيب بنت محمَّد بن الهرماس الطائي، وأمُّها عَكناء بنت أبي صُفْرَة.

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣١٦).

وكان المهلَّب بن القاسم ماجنًا، فشربَ يومًا وامرأته بين يديه، فناولَها القَدَح، فأبَت أن تشربَه، ووضعته بين يديها، فقالَ لها: أنت طالقٌ ثلاثًا إن لم تشربيه، فقام إليها نسوةٌ، فقُلن: اشربيه، وفي الدار ظبيٌ داجن، فعدا، فمرَّ بالقَدَح فكسرَه، فقامَت المرأةُ.

فجحدَ المهلَّبُ ذاك، وقال: لم أطلِقك! ولم يكن لها شهود إلَّا نساء، فأرسلت إلى أهلها، فحوَّلوها.

فاستعدى القاسم بن عبد الرحمن عديَّ بن أَرْطَاة، وقال: غلبوا ابني على امرأته، فغضب عَدِيٌّ، فردَّها إليه، فخاصمَته إلى إياس بن معاوية، وهو قاضٍ لعمر بن عبد العزيز، وشَهِدَ لها نساء.

فقالَ إياس: لئن قرُبتَها لأرجُمنَّك!

فغضبَ عَدِيٌّ على إياس، فقال له عمر بن يزيد الأسديُّ، وكان عدوًّا لإياس؛ لأنَّ إياسًا قضى على أبيه بأَرْحاء كانت في يديه لقوم، فقالَ عَدِيٌّ لعمر: انظُر قومًا يشهدون على إياس أنَّه قذفَ المهَلَّب بن القاسم ثم احْدُدهُ واعزِلْه.

قال: فانظُر من يشهد عليه، فأتاه بيزيدَ الرِّشْك وابن أبي رباطٍ مولى بني ضُبيعةَ ليلًا، فأجمعوا على أن يُرسِلَ عَدِيٌّ إذا أصبحَ إلى إياس، ويشهدوا عليه.

والقاسم بن ربيعةَ الجَوْشَنيُّ حاضر، فقالَ عمر بن يزيد لعَدِيٍّ: إنَّ القاسم سيأتي إياسًا فيحذِّره، فاستحلفَه على ألَّا يُعلِمَه، وحلفَ القاسم وخرج.

فمرَّ بباب إِيَاس فدقَّهُ، فقِيل: من هذا؟ قال القاسم بن ربيعة: كنت عند الأمير، فأحببتُ ألَّا أصلَ إلى أهلي حتى أمرَّ بك، ومضى؛ فقال إياس: ما جاءني هذه الساعة إلَّا لأمرٍ قد علمه، قد خافَ عليَّ منه، فتوارى إياس، وخرجَ إلى واسِط.

واغتمَّ عَدِيٌّ، فقال له يوسف بن عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثَّقَفيُّ: خُذ بالوثيقة؛ فاستَقضِ الحسن.

فولَّى عديٌّ الحسنَ القضاء، وكتبَ إلى عمر بن عبد العزيز يَعيب إياسًا، وذكرَ أنَّ قومًا ثِقاتٍ شَهِدوا أنَّهم رأوا إياسًا وخالد بن أبي الصَّلت يتكلَّمان بما لا تنطق به الألسُن.

فكتب إليه عمر: ما رأيت أحدًا كان أحسنَ قولًا في إياس من أبيك، ولا رأيت أحدًا في زماننا الثَّناءُ عليه أحسنَ منه عليه، وقد أصبتَ حيثُ ولَّيتَ الحسن، وولَّى عمر الحسن[1].



(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣١٣-٣١٥).

وفاته

ذكر حمَّاد عن أبيه؛ قال: رأى إياسٌ في المنام أنَّه لا يُدرك النَّحْر، فخرجَ إلى ضَيعَته بعَبدسِي - قريةٍ من أعمال دَشْت مِيسان بين البصرة وخُوزستان - فماتَ سنة اثنتين وعشرين ومئة، وقيل: سنة إحدى وعشرين ومئة، وكان عمره ستًّا وسبعين سنة، وكان عمر أبيه حين توفِّي ستًّا وسبعين سنة.

قالَ إياس قُبيل موته: رأيت كأنِّي وأبي على فرسَين، فجرَيا جميعًا، ولم أسبِقه، ولم يسبِقني؛ فعاشَ ستًّا وسبعين سنة، وأنا فيها.

فزوَّج إياسٌ ابنه، فقال: أتدرون أيَّةَ ليلةٍ هذه؟ هذه ليلةُ استكملتُ فيها عمر أبي، ونامَ فأصبحَ ميِّتًا[1].

وقال هُشَيم: رأيتُ إياس بن معاوية، وكان أبيضَ

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٣٧٣-٣٧٤)، و"وفيات الأعيان" (٩/ ٢٢٦)، و"دائرة معارف القرن العشرين" (١/ ٧٩١).

الرأس واللِّحية، لا يَخضِب[١].

وكان صادقَ الظَّنِّ، لطيفًا في الأمور، وكان لأمِّ وَلَد، ومنزله عند السِّيِّ، وماتَ بها سنة اثنتين وعشرين ومئة، وله عَقِبٌ بالبصرة وغيرها[٢].

وفي "دائرة المعارف الإسلاميَّة"[٣]:

إياس بن معاوية، ولَّاه عمر بن عبد العزيز قضاءَ البصرة، وتوفِّي عام ١٢١ أو ١٢٢هـ (٧٣٩ - ٧٤٠م)، بالغًا من العمر ستًّا وسبعين سنة.

وصارَ يُضرب به المثل في الأدب العربيِّ لحضور بَديهتِهِ؛ فقِيل: أَزْكَنُ من إياس.

(انظر: prov. Arab. Freytab ج ١ ص ٥٩٣)

وقد رُويَ عن ذكائه أخبارٌ كثيرة، جمعَها كاتبٌ متقدِّم، هو المَدائِنيُّ في كتاب يُسمَّى "زَكَنَ إياس"، وبهذا صارَ إياسٌ من المشاهير في الأدب.

---

(١) "أخبار القضاة" (١/ ٧٢)، وفي "الأعلام" للزركلي (١/ ٣٣٧): أنَّه توفِّي بواسط.
(٢) "المعارف" لابن قتيبة (ص٢٠٥).
(٣) (٣/ ١٧١).

المصادر:

(١) ابن خَلِّكان: "وفَيات الأعيان"؛ طبعة القاهرة ١٢٩٩، (١/ ١٤٣) وما بعدها.

(٢) ابن نُباتة: "سرح العيون، على رسالة ابن زيدون"؛ الإسكندريَّة ١٢٩٠، (ص٧٣) وما بعدها، على حاشية الصَّفَدي: "شرح لاميَّة العجم" (١/ ١٤٢).

(٣) "شرح مقامات الحريري".



وفي "دائرة المعارف" لمحمَّد فريد وجدي[١]:

إياس: هو أبو واثِلَة إياس بن معاوية بن قُرَّة بن إياس بن هلال، القاضي البليغ صاحب الفِراسات المدهِشة، المعدودة في الذكاء آية، كان صادقَ الظَّنِّ، مشهورًا بالذكاء، ضُربت به الأمثال في صدق الفِراسَة، إيَّاه عنى الحريريُّ بقوله في المقامة السابعة: «فإذا أَلمعِيَّتي أَلمعِيَّةُ ابن عبَّاس، وفِراسَتي فِراسَة إياس».

ولَّاه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة.

قيل لوالده: كيف ابنُك لك؟ قال: نعمَ الابن! كفاني

(١) (١/ ٧٩١-٧٩٢).

أمرَ دنياي، وفَرَّغَني لآخرتي.

يحُكى من فطنته أنَّه نظرَ يومًا إلى آجُرَّة بالرَّحبة، وهو بمدينة واسِط، فقال: تحتَ هذه الآجُرَّة دابَّةٌ، فنزعوا الآجُرَّةَ فإذا تحتَها حيَّةٌ منطوية، فسألوه عن ذلك فقال: إنِّي رأيت ما بين الآجُرَّتين نديًّا من بين جميع تلك الرَّحبة، فعلمتُ أنَّ تحتَها شيئًا يتنفَّس.

ومرَّ يومًا بمكان، فقال: أسمع صوت كلبٍ غريب، فقِيل له: كيف عرفتَ ذلك؟! قال: بخضوع صوته وشدَّة نُباح غيره من الكلاب.

فكشفوا عن ذلك فإذا كلبٌ غريبٌ مربوطٌ والكلاب تَنبَحه.

ونظرَ يومًا إلى صَدع في الأرض، فقال: في هذا الصَّدع دابَّةٌ، فنظروا فإذا فيه دابَّةٌ، فسألوه عنه، فقال: إنَّ الأرضَ لا تُصدَع إلَّا عن دابَّةٍ أو نبات.

وله غير هذا أشياءُ كثيرةٌ جمعَها بعض العلماء، فجاءت جزءًا كبيرًا.

ومن أجوبته المُسكِتة: أنَّه سَمِعَ أجنبيًّا عن الإسلام

يقول: ما أحمقَ المسلمين! يزعمون أنَّ أهلَ الجنَّة يأكلون ولا يُحدِثون!

فقالَ له إياس: أفكلَّ ما تأكله تُحدثه؟

قال: لا؛ لأنَّ الله تعالى يجعله غذاء.

قال: فلمَ تُنكر أن يجعلَ الله كلَّ ما يأكلُه أهل الجنَّة غذاء؟!

وكتبَ عمر بن عبد العزيز إلى نائبه بالعراق، وهو عَدِيُّ بن أَرْطَاة: أن اجمع بين إياس بن معاوية والقاسم ابن رَبيعةَ الجَوشَني، فولِّ قضاء البصرة أنفذَهما.

فجمعَ بينهما، فقالَ له إياس: أيُّها الأمير، سَلْ عنِّي وعن القاسم فَقِيهَي المِصْر؛ الحسن البصريَّ، ومحمَّد بن سِيرين.

وكان القاسم يأتيهما وإياسٌ لا يأتيهما؛ فعَلِمَ القاسم أنَّه إن سألَهما أشارا به، فقال: لا تسأله عنِّي ولا عنه؛ فواللهِ الذي لا إله إلَّا هو، إنَّ إياس بن معاوية أفقهُ منِّي وأعلمُ بالقضاء؛ فإذا كنتُ كاذبًا فما يحلُّ لك أن تولِّيَني وأنا كاذب، وإن كنت صادقًا فينبغي لك أن تقبلَ قولي.

فقالَ له إياس: إنَّك جئتَ برجلٍ أوقفتَه على شَفير جهنَّم، فنجَّى نفسه منها بيمين كاذبةٍ يستغفر الله منها وينجو ممَّا يخاف!

فقالَ عَدِيٌّ بن أَرْطَاة: أما إذ فهمتَها، فأنتَ لها، واستقضاه.

ورُويَ عن إياس أنَّه قال: ما غلبني أحدٌ قطُّ سوى رجل واحد؛ وذلك أنِّي كنت في مجلس القضاء بالبصرة، فدخلَ عليَّ رجلٌ شَهِدَ عندي أنَّ البستان الفلانيَّ - وذكرَ حدوده - هو مِلكُ فلان، فقلت له: كم عددُ شجره؟ فسكت، ثم قال: منذ كم يحكم سيِّدنا القاضي في هذا المجلس؟

فقلت: منذ كذا.

فقال: كم عددُ خشبِ سقفه؟

فقلت له: الحقُّ معك، وأجزت شهادته.

توفِّي إياس سنة (١٢٢) هجريَّة، وقيل سنة (١٢١)، وعمره ستٌّ وسبعون سنة.

قالَ إياس في العام الذي توفِّي فيه: رأيتُ كأنِّي وأبي

على فرسَين، فجرَيا جميعًا، ولم أسبِقه، ولم يسبقني؛ فعاشَ ستًّا وسبعين سنة، وأنا فيها.

فلمَّا كان آخرُ لياليه قال: أتدرون أيَّة ليلةٍ هذه؟ هذه ليلةُ استكملتُ فيها عمرَ أبي، ونامَ فأصبحَ ميتًا.



مراجع الكتاب

١. أخبار القضاة.

٢. الأذكياء، لجمال الدِّين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي.

٣. الأعلام، لخير الدِّين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي.

٤. البداية والنهاية، لأبي الفِداء إسماعيل بن عمر بن كثير.

٥. البيان والتبيين، لعمرو بن بحر الجاحظ.

٦. ثمرات الأوراق (مطبوع بهامش المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف للشهاب الأبشيهي)، لابن حِجِّة الحموي.

٧. حلية الأولياء، لأبي نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني.

٨. دائرة المعارف الإسلاميَّة.

٩. دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي.

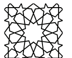
١٠ شَذرات الذهب، لعبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي.

١١- الطرق الحُكْميَّة، لابن قيِّم الجوزيَّة.

١٢- ميزان الاعتدال، للذهبي.

١٣- وفيات الأعْيَان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خَلِّكان البرمكي.



 فهرس الموضوعات



آثار الشيخ زيد الفياض

تمتازُ بالجمع بين العلم الشرعيِّ الموثوق والثقافة الإسلاميَّة الأصيلة، مصوغةً بأسلوب سهل ومشرق، يُقنع العقلَ ويُلامس الوجدان.. كيف لا وصاحبُها فارسٌ من فرسان الميدان؟!

إنه الشيخُ زيد بن عبد العزيز الفياض رحمه الله؛ نمطٌ فذٌّ بين علماء عصره، جمعَ بين التحصيل الشرعيِّ المتين والاطِّلاع على ما يروجُ في زمنه من أفكار وثقافة طارئة، فامتاز ببصيرة نافذة ناقدة لما يدورُ حوله من حوادث، وما يُلمَّع من فكر دخيل وفلسفات ومذاهبَ وافدة! فانتضى قلمَه بجَراءة، وبذل وُكدَه في كشف كلِّ ما يتهدَّد أمَّة الإسلام بصراحة، فغدت كتاباتُه وثائقَ تاريخيَّة مدوَّنة بيد خبير ثقة مقتدر.

وما خلَّفه الشيخ من تراث علميٍّ وفكريٍّ نافع، يتوزَّع بين كتب طُبعت ونَفِدَت، ومقالات نُشرت في الصحف قديمًا ولم تُجمَع، ومُسوَّدات بحوثٍ وكتب عاجلته المنيَّة قبل تحريرها وإخراجها.

ويُسعدنا في دار الألوكة للنشر أن نميطَ اللثامَ عن هذا التراث الرصين بتقديمه لأبناء عصرنا لينتفعوا بما فيه من علم ونصح وغَيرة. هذا ولم نألُ جهدًا في التصحيح والتحرير والعناية. ونسأله سبحانه التوفيقَ والقَبول، وأن يجعلَ هذا العِلمَ النافعَ في صحيفة صاحبه وناشره.



توزيع مؤسسة الجريسي - الرياض - هاتف ٤٠٢٢٥٦٤